

رواية

الدكتورة

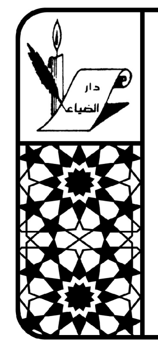
دانة أحمد الجدع



ISBN 978-9957-05-212-6







عمان - الأردن

صندوق بريد : ٩٢٥٧٩٨ - الرمز : ١١١٩٠

هاتف وفاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٧٨٥٠٢

البريد الإلكتروني : info@daraldia.com

الموقع على الإنترنت : www.daraldia.com

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية ٢٠١٠/١٠/٤٠٥١

٨١٣,٩

الجدع ، دانة أحمد

وماذا بعد ؟ ـ رواية / دانة أحمد الجدع .ـ

عمان : دار الضياء للنشر والتوزيع ، ٢٠١٠

(٢٠٨ ص).

ر.إ. (٢٠١٠/١٠/٤٠٥١).

الواصفات : القصص العربية // العصر الحديث /

■ تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

١٤٣٢ هـ | ٢٠١١ م

تصميم الغلاف	أنس أحمد الجدع
رسمة الغلاف	دانة أحمد الجدع

بسم اللّه الرحمن الرحيم

بسم اللّه وحده لا شريك له

بسم اللّه الواحد الأحد الفرد الصمد

الكاتبة

الـدكتورة دانــة أحمــد الجــدع، طبيبــة، صــاحبة الروايــات: "الخامسة مساء الجمعة" "أمل في القمر" "إلى من قد لا ألتقيه".

أحمد الله على هبة الرواية، وعلى نعمه الكبيرة على بني البشر.

كما أحمده على نعمة الفن، الذي يرتقي بالبشر، ويخلد الشعوب.

يُتهم الفن في عصرنا الحالي أنه مفسدة الشعوب، ولكن الواقع أن الفن بريء من هذه التهمة، والمتهم الحقيقي أشخاص جعلـوا مـن الفـن متاعاً لمآربهم الشخصية.

فالفن في واقع الأمر مفخـرة الـدول، تنوعـت أشـكاله ومـضامينه حتى شملت كل شبر في حياة الإنسان، فمـن منـا لا يـسير في الطرقـات ليشهد فـن العمـارة، ومـن منـا لا يرتـاد الحـدائق لـيرى فـن التـصميم والتنسيق، ومن منا لا يسمع تغريد العـصافير في الـصباح، ومـن منـا لا يملك لوحة جميلة في منزله، ومن منا لا يملك كتاباً على مكتبه؟

الفـن في حياتنـا كـالألوان للوحـة، بانعـدامها ينعـدم الجمـال، وتتكدر الحياة.

كلي أمل أن نرتقي بالفن، ويرتقـي الفـن بنـا، حتـى نـصبح مـن

الشعوب الخالدة على خط التاريخ، ويرضى الله تعالى عنا.

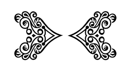
بذلك أهدي هذه الرواية مـن بعـد والـدي ووالـدتي إلى كـل فنّـان مثمر في هذه الدنيا.

الموقع الشخصي للكاتبة:

www.dr-danajada.com

البريد الالكتروني:

Danajada84@yahoo.com



نبذة عن الرواية

تمنى الكثيرون عبر العصور أن يحصلوا على قبس من المستقبل، ولكن هل فكر أحدهم أن ذلك قد لا يكون في صالحهم؟

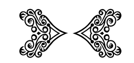
ألم تكن هناك حكمة بالغة الأهمية في إخفاء القادم، وتسميته بعلم "الغيب" الذي استأثره الله لنفسه؟

هل فكر أحدهم أن "الغيب" من نعم الله الكبيرة على البشر؟

لقد مَنَّ الله على البشر بنعمتين، إحداهما للمستقبل، وهي الغيب، والأخرى للماضي، ألا وهي النسيان، ولكلاهما أهميته الخاصة التي تدفع البشر إلى العمل في الحاضر.

وفي أحداث هذه الرواية لمسات لأهمية الغيب في حياة البشر، تعرض بأسلوب مخيف وشيق.

فما الذي سيحصل إذا ما اطلع أحدهم على شيء من "الغيب"؟





المقدمة

لم أكن أتصور وأنـا في مقتبـل العمـر أن الجـد قـد مـر في فـترات الزمان ذاتها التي مررت بها، لقد كان طفلاً، ثم صبياً، ثـم شـاباً، أمـا الآن وأنا أعيش عيدي الثمانين، أعـد الـشعرات البيـضاء المتبقيـة علـى رأسي، وأنظر إلى أصابعي الضعيفة، وأظـافري المهترئـة، أجلـس علـى كرسي يهتز بي ذهاباً وإياباً ليـشعرني بالهـدوء الـذي أرجـو، وألـف جسدي بلحاف يحميني من نسمات البرد في بداية الخريف، أنظـر إلى أحفادي فأعلم تماماً أنهم يفكرون بالطريقة ذاتها التي كنت أفكر بها.

واحد من أحفادي فقط هو الذي اقترب مني يقـول: "جـدي، هـل صحيح أن هذا هو عيدك الثمانون؟"

ابتسمت له وأجبته: "نعم يا بني، إنه الثمانون"

فتحلق حولي أحفادي الآخرون، تـتراوح أعمـارهم بـين الثالثـة والثانيـة عـشرة، صـغار نـشيطون، لا يفكـرون إلا باللعـب، وبـدؤوا يسألون: "ما هو شعورك اليوم؟ كيف ستقضي العام القادم؟ هل تحب أن نحضر لك هدية؟ هل تتذكر أياماً سعيدة مع الجدة؟..."

كلهم يفكرون في الثمانين، كم مضت أيام طوال عشت فيها الصبا

كما يعيشون، ولكن أحدهم لا يدري.

كرر علي أحفادي : "هل تحب أن نجلب لك طعاماً ما؟ ألا تحب أن تتناول شيئاً من اللحم، ألا تحب أن تغير شيئاً من عادتك في هذا اليوم؟"

حدقت في عيونهم البريئة، إنهم لطيفون ويحبونني، ولكنهم لا يفهمون ما أشعر به، وكيف لهم ذلك وهم في مقتبل العمر؟ أما أنا فقد دارت بي الحياة، ورمتني في دوامة الزمن لا أعلم متى أخرج منها.

"جدي... هل تريد اللحم؟"

ربّتُّ على شعر حفيدي وقلت له: "شكراً لك يا صغيري، ولكني لن أغير هذه العادة ما حييت"

"إذن ماذا نحضر لك؟"

فكرت قليلاً، ثم قررت أن أكون صادقاً وأجيب إجابة من القلب علّها تصل إلى القلب: "لا أريد أن تحضروا لي شيئاً، أريد فقط شيئاً واحداً"

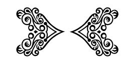
"ماذا؟"

"أن تستمعوا إلى حكاية أرويها لكم"

تنهد الأحفاد، فقد اعتادوا على سماع حكايات من الزمن الغابر، بل اعتادوا على تكرار الحكايات نفسها مني ومن جدتهم، بل ومن أجدادهم من أمهاتهم وآبائهم من الطرف الآخر، ولكن... هل حكايات الأجداد دائماً تبعث الملل في نفوس الأحفاد؟

يبدو أن الأحفاد قد تمالكوا أنفسهم لأنه يوم مميز بالنسبة لـي، جلس أولهم أمامي على الوسـائد المريحـة المنتـشرة في أنحـاء الغرفـة، جِلسة إنصات لما سأقول أياً كان، وبدأ الآخرون يحذون حـذوه مجاملـة لي، ربما يحسبون كم من الوقت سيضيعون في هذه الجلـسة، ولكـن... ألا يملك الجد حكاية ممتعة؟

قـررت أخـيراً أن أروي مـا يحبـون، وحـدقت فـيهم بعـين لم يعهدوها من قبل وقلت: "هل تظنون أن الجد غير قادر علـى روايـة مـا هو مثير؟ إليكم هذه الحكاية... كان يا مكـان في قـديم الزمـان وسـالف العصر والأوان..."





الجزء الأول

التعريف بالشخوص

الفصل الأول

جامعة الفنون

بينما بدأ البرق يسطع، والرعد يصرخ، والهواء يعصف في الخارج، بدأت أتجهز لرواية حكاية لم أروها من قبل، حكاية تحبس الأنفاس، وتذهل العقول، وتشد الحواس، حكاية يتلاعب فيها الخيال مع الواقع، ويذوب فيها الخفي مع الموجود.

"كان يا مكان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان، كانت هناك بناية كبيرة مريبة، يكتنفها كل الغموض، تقع وسط المدينة على أكثر من ثلاثين دُنماً، لا يُعلم لها صاحب، ولا يرى فيها دخيل.

حامت حولها الإشاعات، وشغلت أفكار الناس، فما كان أحدهم ينطق بكلمة إذا ما مشى محاذاتها، ومنهم من كان يتجنب السير في شارعها، حيث انتشرت كل أشكال الخرافات والأساطير في شأنها.

كان بناؤها مصمماً على هيئة حجرية، تظنها بنيت في عهود قديمة، مع ذلك لم تكن تخلو من العراقة، لو كانت بناية قديمة فعلاً لربما كانت من بين عجائب الدنيا اليوم، صامدة شامخة، لا يطؤها مخلوق.

من الغريب أن يصف أحدهم شيئاً كهذا ويقول في آن واحد أنه شهد إنشاءها، وعاين ارتفاع أعمدتها، وقد استغرق إنشاؤها ما يقارب

الثلاث سنوات، معظم العمل كان يتم بعد منتصف الليل.

كان للبناية سور طويل، ولم يكن يستطيع أحد أن يرى من البناية إلا الباحة الخلفية، وكانت جميلة ونظيفة، تحوي بحيرة صغيرة، ووروداً إلى جانبها منتظمة بعناية.

كما كان هناك عدد من المقاعد، يؤكد الجميع أن أحداً لم يجلس عليها بعد، لربما الأرواح وحدها جلست عليها كما قالت إحدى الإشاعات.

وإلى الآن، وكما ذكرت سابقاً، لم يهتد أحد إلى هوية صاحبها، أو الهدف الذي بنيت من أجله.

مرت الأيام، ونشر الإعلان الصحفي: (جامعة الفنون ترحب بكم، وتعلمكم بحلول بداية الفصل الدراسي الأول فيها، لمن يرجو التقدم بالطلب إلى الجامعة، فعليه فقط أن يقدم اسمه "المستعار" والمجال الذي يرغب الدراسة فيه.

تحوي الجامعة على جميع فروع التخصصات الفنية، كما تفتح المجال لجميع الأعمار بالانضمام.

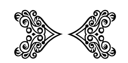
تقع الجامعة في الشارع الخامس، إلى جانب الجسر الرئيسي الذي يربط المدينة بالمدينة المجاورة.

نرجو التوفيق للجميع).

رغم أن العنوان كان واضحاً، إلا أن أحداً لم يصدق أن البناية تلك قد ظهرت هويتها أخيراً –أو كما كنا نظن– وأنها ستفتح أبوابها أخيراً للجميع!

كان الإعلان بسيطاً، وقرر الكثيرون التقدم، وتحلق حول البناية أكثر من خمسة آلاف طالب وطالبة من مختلف الأعمار، منهم من لم يجاوز العاشرة، والآخر من جاوز السبعين، يحملون جميع الأوراق الرسمية التي يمكن أن تطلب، ولكن التقديم لم يشمل سوى اسم مستعار –شريطة ألا يتوافق مع أي اسم آخر– بالإضافة إلى صورة تؤخذ عند تسجيل الطلب.

هذا كان كل شيء، ولم يُرَد طلب أحد، وكان الإعلان التالي في الجريدة: (يبدأ الدوام الرسمي غداً، يوم السبت، الساعة الرابعة صباحاً)".



الفصل الثاني

الشيك المفتوح

سأل أحد الأحفاد: "وهل سيحضر أحد الساعة الرابعة صباحاً؟"

قال آخر: "لماذا هذا الوقت المبكر من الصباح؟ النهار طويل"

فأجبتُ قائلاً: "صبراً يا أحفادي، فالحكاية ما تزال في أطرافها الأولى"

فقال أحدهم: "وماذا حصل بعد ذلك؟"

أكملت:

"من بين الخمسة آلاف طالب، حضر اليوم الأول في الساعة الرابعة صباحاً ألف وخمسمئة طالب، قامت الجامعة بادئة بتسجيل أسمائهم، وشطب من تبقى من الأسماء.

لم يكن سهلاً على أحد أن يستيقظ قبل الرابعة، بل ظن الكثيرون أنه كان خطأ مطبعياً لا أكثر، ولكن الجامعة أغلقت أبوابها الحجرية، وأعلنت بداية العام بمن تحويهم.

وأخيراً حضر المدرسون، يبدو أنهم يعرفون تماماً ماهية المكان وهويته، فهم يقفون صفاً واحداً لاستقبال الطلاب، ترتسم على وجوههم ابتسامة مريبة تكاد تبوح بخفايا وأسرار هذه الجدران.

توزع المدرسون بين ذكور وإناث، بين شباب وشيوخ، حتى أنه حوى طفلاً لم يتجاوز العاشرة!

كان من المفترض أن يكون الجو أخوياً جميلاً، في مكان جميل، وجو لطيف، ووجوه مبتسمة، ولكن أحداً من المشتركين لم يكن يشعر بالراحة.

شيء ما يخبئه القدر، شيء ما وراء تلك الجدران، شيء ما وراء تلك الابتسامات، شيء جعل جميع الطلاب يتحدون حتى دون أن يشعروا، لقد باتوا متصلين بقدر محتوم.

لم يكن هناك من رئيس بينهم، كانوا جميعاً يصطفون بشكل منتظم كأسنان المشط، يرحبون بالمنتسبين، ويقدمون لهم التهاني.

وماذا بعد؟

بدأ توزيع الطلاب حسب ميولهم، منهم من اختار الرسم، ومنهم من اختار العزف، والتمثيل، والرواية، والخطابة، والشعر... كما بدأ توزيع الفنون المتخصصة، وتفرع عبر تفرع، لم يكن المشوار طويلاً، على كل فرد أن يدرس فرعاً بعينه، وعليه أن يخضع للتدريبات اليومية استعداداً لامتحان نهاية العام، وهذا كل ما في الأمر!

سأل أحد المشتركين عن ماهية الشهادة التي سيحصلون عليها، وإذا ما كانت الجامعة معترف بها في أنحاء البلاد والبلاد المجاورة، وكان الجواب بسيطاً وصريحا: لا!

تحدث أحد المدرسين، وقد كان شاباً في بداية الثلاثين، يرتدي ثياباً أنيقة وحيوية، ترتسم على وجهه ابتسامة ألطف من الباقين، وقد صفف شعره بأسلوب جذاب، استخدم فيه مساحيق عدة.

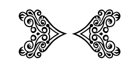
قال: هذه الجامعة ليست مسجلة في سجلات الجامعات العالمية، وليست كذلك في محتوى الجامعات الدولية، وهي أيضاً ليست ضمن الجامعات المحلية، إنها جامعة خاصة جداً، تقوم فقط بتنمية المواهب.

فقال أحد المنتسبين: وماذا نجني من هذا؟

أوضح: ببساطة تنمون مواهبكم بأسلوب حديث، وبإشراف من أعظم أساتذة الفن من مختلف بقاع الأرض.

احتج أحد المنتسبين: وهل هذا كل شيء؟

هنا قاطع الحديث أكبر الأساتذة، شيخ في السبعين، تبدو التجاعيد واضحة على وجهه، وعلامات الصرامة لم تستطع الابتسامة المصطنعة اخفاءها، رغم ذلك كان يتمتع بصحة جيدة، كما كان صوته قوياً ينم عن ذاكرة حديدية: تحصلون على هذا. ورفع بيديه ورقة صغيرة بحجم الكف، حاول الجميع التحديق في محتواها بلا فائدة، فأوضح: إنه شيك مفتوح".



الفصل الثالث
المنتسبون

انبهر الأحفاد: "أوّاه! شيك مفتوح!"

أشرت بالإيجاب: "نعم، هذا ما كان الجميع سيتنافسون للحصول عليه"

سأل أحد الأحفاد: "ومِن مَن سيحصلون على هذا الشيك؟"

أجبت: "من الجامعة"

قال: "أعني من هو الذي سيصرف لهم هذا المال؟"

أجبت: "لم يفصح أحد عن هوية صاحب المال، ونسب معظم المنتسبين الرصيد إلى الدولة"

قال الأحفاد منبهرين: "هذا رائع"

فتابعت الحكاية أقول: "كثيرون هم من تقدموا للجامعة، وخاضوا التدريبات، وقُيموا في الامتحانات، ولكن ما عليكم إلا أن تتعرفوا على أربعة منهم:

بسّام، شاب في الخامسة والعشرين، قصير القامة، بدين الجسم، شعره أسود قصير، بسيط الملامح، ذو عيون غائرة، وصوت رفيع، يرتدي ثياباً قطنية تلائم حجمه الكبير، وبنطالاً مفصلاً له خصيصاً.

شاب مهذب يعتبره الجميع روتينيا مملاً، فهو ينزوي في الغالب، ولا يشارك الشباب في الطيش والتهور.

أما عائلته فقد كانت متوسطة الحال، لا تقل روتينية عنه، فهو ولد وحيد لوالد يعمل موظفاً في الحكومة، وأم تعمل مدرسة في مدرسة متوسطة.

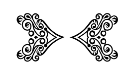
رغم أنه كان محور المنزل، إلا أنه اعتاد على الإمساك بصديقه الوحيد، القلم، ليرسم كل ما يعبر عنه.

لقد كان بارعاً في شتى أشكال الرسم، وقد طور نفسه بنفسه، وتعلم من التجربة والملاحظة، ولم يطلب يوماً إلى والده أن يلتحق بأي معهد ليصقل مهارته في الرسم، إلى أن فتحت الجامعة أبوابها، فانتقل إليها ليحظى بفرصة فريدة في تعلم لوحات الخلفيات، فقد أثار هذا الفن فضوله، وتابع الأفلام التي تقوم على الخلفيات الصورية اليدوية والحاسوبية، ويقف المثلون أمامها كأنهم جزء لا يتجزأ منها، وكان له ذلك.

التحق بسام بالجامعة، وتخصص في هذا المجال، وأبدع فيه، وبقي على انعزاله، إلا أنه قد أصبح مقرباً بعض الشيء من مدرسته الآنسة سميّة، فقد كانت من يدرس هذا التخصص بالتحديد، وقد ساندته كثيراً، فقد كانت بارعة فيه.

سميّة كانت في أواخر الأربعين، سيدة أنيقـة، سمـراء البـشرة، بابتسامة جميلة، ما تزال ملامح الجمال بادية على وجهها رغـم كـبر سنها، تلف حجابها بأشكال أنيقـة كـل يـوم، وبـألوان فنيـة لا تقـل براعة عن ألوان الريشة على اللوح.

لم يكـن بـسام يأمـل في الـشيك المفتـوح، إنـه فقـط سـعيد لـصقل مواهبه خلال عام جميل، تعرف فيه بأستاذة مبدعة، وطـور مهاراتـه بأسلوب ملحوظ وبوقت قصير، وكان على أتم الاستعداد لمتابعة حياتـه الروتينية في الخارج، يجهل تماماً ما خبأه له هذا العام من أحداث".



الفصل الرابع

المنتسب الثاني

سأل أحد الأحفاد: "بسّام هذا له دور كبير في القصة؟"

أجبت: "نعم، عليك أن تتذكره، إنه شاب مهذب"

قال آخر: "ولكنه ممل!"

قلت: "هذا لا يعني أنه ليس جيداً، إنه إنسان خلوق بسيط"

قالت إحدى الحفيدات: "ماذا عن المدرس الوسيم ذاك، ماذا يدعى؟"

ضحكت لسؤالها، وأجبت: "حسناً، كنت سأعرج عليه قريباً، اسمه إحسان، وهو مدرس الموسيقى، ليست هناك آلة موسيقية تستعصي عليه، وهو متمرس على الكمان والفلوت، فهو يفضلهما"

فرحت الحفيدة بإجابتي، وكان واضحاً أنها تنتظر أخباراً عن إحسان في الحكاية، أما الآن فكان علي أن أعرج على المنتسب الثاني: "أما بالنسبة للمنتسب الثاني الذي عليكم أن تتعرفوا عليه فكان اسمه فريد، وهو على خلاف بسّام شاب متهور مفعم بنشاط الشباب، رغم أنه يكبر بسّام بثلاث سنوات.

فريد كان يحب دائماً أن يكون مميزاً وتحت الأضواء، ولا عجب أنه اختار مجال التمثيل هدفاً له.

كان يحلق شعر رأسه عن آخـره، ويـترك لحيـة صـغيرة تعتـبر الأكثر جاذبية في عصره ذاك، كما كان يعـتني بلياقتـه البدنيـة، فهـو طويل عريض المنكبين، أبيض البشرة مع حمرة خفيفة، غالبـاً مـا كـان يرتدي نظارات شمسية، وكان دائم الأناقة.

كما أنه مـن عائلـة فاحـشة الثـراء، وهـو مولـع أكثـر مـا يكـون بالسيارات، ويقودها بتهور شديد.

وبما يخص العائلة، فإن والده يعمل في شـركة تجاريـة بحريـة خاصة، ووالدته مصممة أزياء معروفة، ولديه أخ يـدرس الحاسـوب في جامعة مرموقة، ولم يكن لديه الميل الفني الذي يستهوي أخـاه فريـد، كما أن لديهما أختاً صغرى مدللة في الخامسة.

وبما أننا نتحدث عن التمثيل، فإنني سأحدثكم قليلاً عن مدرس هذا الفرع، إنه في الخمسين من العمر، لم يحل تقدم الـسن بينـه وبـين نجاحه الباهر في هذا المجال، بـل إن الخـبرة واضـحة في أدائـه. وهـو قادر على تمثيـل أي دور يـشاء، هزليـاً كـان أم دراميـاً، ذكيـاً كـان أم غبياً، فقيراً كان أم غنياً.

كان اسمه ضياء، أشقر، قـصير القامـة، نحيـل الجـسد، قـصير الشعر، وكان حيوياً نشيطاً في المحاضرات، ولكن فريداً لم يكن يعـيره اهتماماً كبيراً، ولم يكن يحظى فريد بتركيز خاص من ضياء".

الفصل الخامس

المنتسب الثالث

سأل حفيد: "هل كانت علاقتهما سيئة؟"

أجبت: "كلا، لم تكن كذلك، ولكن لنقل إنه لم تكن هناك علاقة أساساً"

فسأل حفيد آخر: "ولكن على فريد أن ينتبه إلى ذلك، فقد لا ينجح إذا لم ينل إعجاب الأستاذ"

قلت: "لم تكن بينهما علاقة، ولكن هذا لا يعني أن الأستاذ لم يكن حاضر الذهن إلى جميع المنتسبين وقدراتهم، فقد كان يعلم الكثير عن الجميع، كما أن فريداً لم يكن يحتاج إلى الشيك المفتوح ليحصل على المال"

انبهر الأحفاد بالغنى الفاحش الذي يعيشه فريد، أما الآن فعلي أن أستحضر إلى أذهانهم المنتسب الثالث، فقلت: "المنتسب الثالث يدعى شادي، شاب في الثانية والثلاثين من العمر، أكبر المنتسبين الأربعة، طويل ووسيم، طويل الشعر، واسع العينين، تقطر عيناه غروراً، يحلق شاربه ولحيته عن آخرهما، وينتقي ثياباً أنيقة رغم أنها رخيصة الثمن.

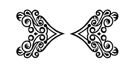
كان شادي من عائلة متوسطة الحال، له أختان صغريان، كما

أنه تقدم لخطبة فتاة في السادسة والعشرين من العمر اسمها قمر.

لم يكن مشروع الخطبة سهلاً بالنسبة له، فقد تعب في تحضير ما يلزم من تجهيزات كانت واجبة في ذلك العصر، وبعد كل التعب اضطر لتأجيل العرس بسبب كثرة المصاريف.

على كل حال كانت هذه حال معظم الشباب، أما بالنسبة لميوله فقد كان عازفاً طموحاً، كان يحب البيانو والكمان، وكان من المبدعين منذ التحاقه، فقد كان قد تمرس في العزف في عدة أندية، وتعلم على أيدي المحترفين.

مدرسه في الجامعة كان إحسان، الذي تحدثنا عنه من قبل، وقد كان إحسان حسن التعامل مع الجميع، وكان يعلم أن لدى شادي ما يميزه عن الآخرين، ولكنه كان يعامل الجميع بالمثل"



الفصل السادس

المنتسب الرابع

قال أحد الأحفاد: "بقي المنتسب الرابع"

قالت إحدى الفتيات: "أليست فتاة؟"

فأجبتها: "لا تتمني ذلك، فلن يكون ذلك شيئاً جيداً لها"

"لماذا؟"

قلتُ: "لا تستبقوا الأحداث، المنتسب الرابع كان شخصية كئيبة، أستطيع أن أروي عنه رواية تراجيدية بحته، فهو يتيم الأبوين، يرعى عائلة مكونة من ثلاثة أفراد، بنتان وولد أصغر.

يدعى راوي، نحيل، ذو شعر بني ناعم، وعيون عسلية ذائبة في بحر الأحزان، بياضه شاحب، وجسده دائم الإنهاك من الهم والعمل.

دعاه إلى الالتحاق بالجامعة حبه للكتابة، الذي لم يدر عليه يوماً فلساً واحداً، ولكنه كان يشعر أن طريق الرواية هو مسار حياته الذي خلقه الله له، وبرغم كل المآسي التي يذوقها كل يوم إلا أن إيمانه بأن الله سيجعل من يده تلك ومن قلمه الهش، رمزاً في هذه الدنيا، هو دافعه الأكبر.

إخوته يصغرونه، فقد كان في الثامنة عشرة، وله أخت في

الخامسة عشرة، وأخرى في الثانية عشرة، وأخوه الأصغر بعمر العـشر سنوات.

مرت ستة أعوام على وفاة والدته بمرض الـسل، الـذي تفـشى في جسدها من قلة الرعاية الصحية، وتزوج والده من أخرى وتـرك راويـاً يعتني بإخوته الصغار منذ ذلك الحين.

اضطر راوي لتقسيم يومه بين الدراسة والعمل، ولم يحصل علـى تحصيل دراسي جيد، ولم يدر عليه أي عمل أموالاً كافية، كان غالباً ما يحرم نفسه من أجل إخوته.

ولم يكن أحد يأبه لاهتماماتـه وكتاباتـه، ومـا لم تـدر عليـه أي نقود فلم يكن يأبه بعرضها على أحد، كل همه كـان محـصوراً في جمـع المال، إلى أن انتصبت تلك الجامعة أمام عينيه، وفكـرة الـشيك المفتـوح كانت له أكبر من خيال.

فعلى عكس فريد، كان هـم راوي منـصباً علـى الـشيك المفتـوح، وعلى هوايته التي يحبها، ويحب أن تكون الـسبب في فـتح الآفـاق لـه ولإخوته الصغار.

مدرس راوي كان كاتباً خبيراً في جميع المجالات الكتابية، فقد برع في الكوميديا والتراجيديا علـى حـد سـواء، كمـا بـرع في الروايـات الطويلة والقصص القصيرة المعبرة، وشـارك راويـاً بأفكـاره وابداعاتـه،

واقتبس راوي الكثير من العلم منه، وطور أداءه بسرعة كبيرة حيث لم يكن يملك من الوقت الكثير بين العمل والدراسة والكتابة.

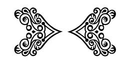
مدرسه كان في الأربعين من العمر، يدعى أسد، كان واضحاً عليه سمات اللاأبالية، وقد فُرض عليه الثوب الرسمي فرضاً قاسياً، حيث تلاحظ محاولاته الدائمة لفتح أزرار القميص، أو فك ربطة العنق، وأحياناً رفع الأكمام إلى الكوع.

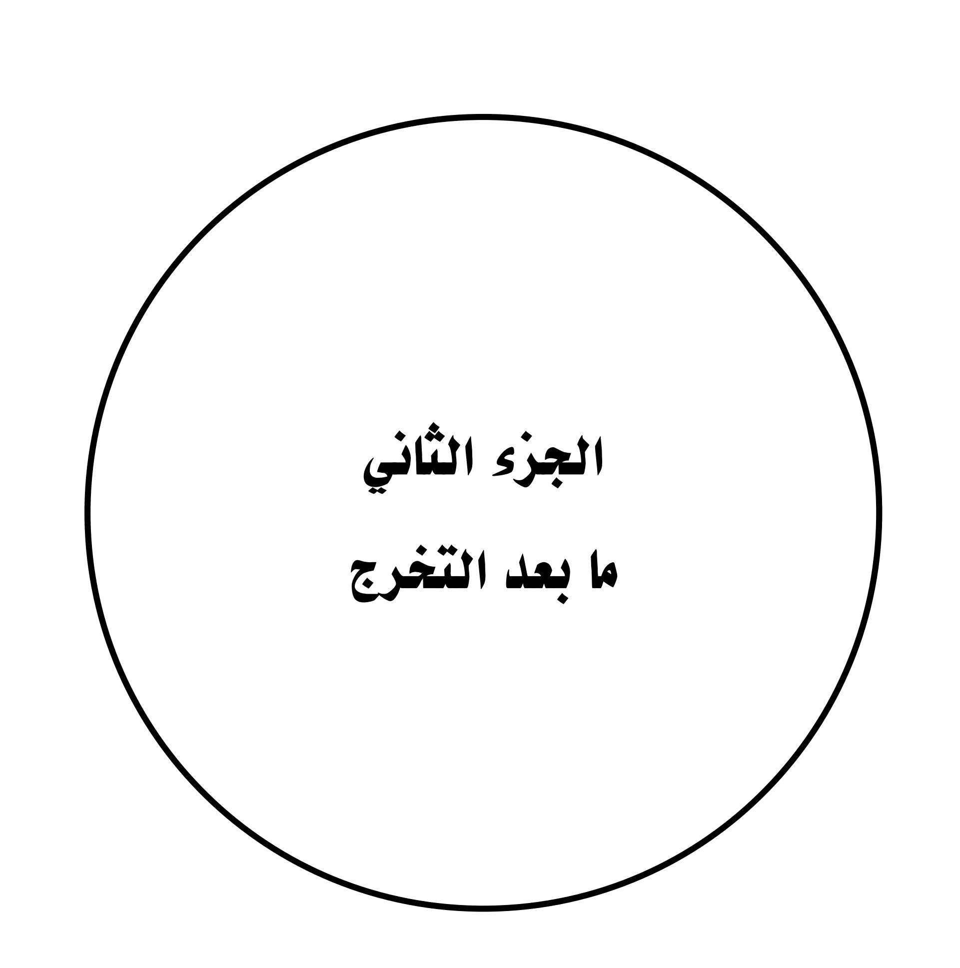
عدا ذلك فقد كان وسيماً حسن الخلق، هادئ الطباع، يحب الجو السعيد الهادئ، وغالباً ما كانت محاضراته تحوم في هذه الأجواء.

استطاع أن يساعد راوياً، وأن يهيئه لكتابة ما هو مثير ومبدع، وكان راوي ممتناً جداً، ولكنه بالكاد كان يحلم بالشيك المفتوح".

قاطعتني حفيدتي تستبق الأحداث: "ومن منهم حصل على الشيك؟"

ضحكت وقلت لها: "هذا ما سنعرفه غداً في الحفل السنوي، أما الآن فقد تأخر الوقت، خذوا قسطاً من الراحة، وسأتابع الحكاية في الساعة نفسها من مساء الغد".





الجزء الثاني

ما بعد التخرج

الفصل السابع

البداية

كنتُ جالساً أحدق في قطرات المطر المتساقطة على النافذة، رذاذ طفيف، ثم قطرات أكبر فأكبر، ثم يعاود الانقطاع.

مخطط قد رسم له بكل دقة وإتقان، كل قطرة من هذه القطرات تتجه إلى حيث يقودها مرسلها، لا تتزحزح يميناً أو شمالاً، بل لا يشاركها في مسارها قطرة أخرى.

يوماً ما ستصل تلك القطرة إلى التربة، فتبتلعها الأرض، وتستغلها الأشجار، وكل قطرة في شجرة، وكل ذرة في خلية، كلها تسير وفق تدبير واحد.

ألا نشبه قطرات الماء في مسارنا في هذه الدنيا؟

كانت رغبتي شديدة في كتابة ما أفكر فيه، ولكن رجفة شديدة سيطرت على جسدي منذ سنين، جعلت مني إنساناً عاجزاً عن التعبير بالكتابة، ولكن ما يزال لدي أسلوب التعبير الشفوي، فقد تحلق حولي أحفادي ثانية، هذه المرة بملء إرادتهم، لأتابع لهم الحكاية.

قال أحد الأحفاد: "ذكّرنا يا جدي بالشخوص ثانية"

قلتُ: "على الرحب والسعة، تذكرون المنتسبين الأربعة: بسّام،

فريد، شادي، راوي.

كما تعلمون فإن هذه الأسماء إنما هي أسماء مستعارة استخدموها داخل الجامعة، فبسّام كان رساماً، وفريد كان ممثلاً، وشادي كان عازفاً، وراوي كان كاتباً.

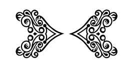
يدرسهم: سمية، وضياء، وإحسان، وأسد".

قفزت إحدى حفيداتي مسرورة: "نعم إحسان!"

ضحكت لتفاعلها، ثم تابعت: "بسام كان هادئاً في طبعه، فريد كان غنياً مندفعاً، شادي كان طموحاً، وراوي كان حزيناً.

سمية كانت جميلة، وضياء كان مميزاً، وأسد كان لا أبالياً، وإحسان..."

فقالت حفيدتي: "كان وسيماً".



الفصل الثامن

التخرج

تابعتُ الرواية: "وحان اليوم الموعود، يوم التخرج، اليوم الذي سيعلن فيه المنتسب المثالي الذي سيحصل على الشيك المفتوح.

كان حفلاً كبيراً، حضره جميع المنتسبين والمدرسين، كما كان مفتوحاً للعامة أخيراً.

كان يضم احتفالات وبازارات، استغل فيه كثير من التجار الفرصة لعرض بعض البضائع، حتى إن بعض المنتسبين عرضوا أعمالهم للبيع في ذلك اليوم.

كان أشبه باليوم المفتوح، ولكن الجميع كان ينتظر النتيجة الساعة السادسة مساء.

كان الجو جميلاً، والجميع متحمسين، والتجارة على أوجها، والإبداع مرشوق في كل مكان.

قام بسّام بعرض بعض لوحاته، وقد استطاع أن يبيع منها الكثير، كما قام فريد ببعض الحركات الاستعراضية على المسرح، وعزف شادي الكثير من الألحان الجميلة.

أما راوي فقد كان يعمل حتى يكسب قوت عائلته حتى في يوم

التخرج، ولم يكن يأمل بالحصول على الشيك، إلا أنه كان ينوي أن يحضر الحفل الساعة الخامسة.

وشارك المدرسون بالأداء، وتنوعت المستويات، ولكن أحداً لم يكن يعلم بعد من هو المحظوظ بين المنتسبين.

ومضى الوقت، واقتربت الساعة، وساد التوتر.

من الذي سيعلن النتيجة؟ ومن صاحب الشيك المفتوح؟

دقت الساعة السادسة، ونظرالمتنسبون إلى الساعة الرئيسية في الجامعة، حيث علقت بالونات كثيرة على سطح الماء، كتب على كل منها اسم منتسب في الجامعة تكريماً لهم على جهودهم.

لحظتها قطع خيط إحدى البالونات، وصعد في السماء حاملاً اسم: فريد!

لم ينطق أحد بأية كلمة، كانت الساحة تحوي الآلاف، ولم يسمع فيها صوت ينطق، فقط دقات الساعة السادسة، والبالون الطائر، ماذا يجري؟ ماذا يعني ذلك البالون؟ هل فريد هو الفائز؟ هل هذا هو الأسلوب لإعلان النتيجة؟

عندها سمع تصفيق، إنهم المدرسون، ينظرون إلى البالون ويصفقون، لقد أعلن الفائز بالشيك المفتوح، إنه فريد.

لحظات مرت بسرعة، لم يتخيل أحد أن الإعلان كان بهذه

البساطة، ولم يصفق أحد من هول الصدمة، فقط سقطت الأنظار على فريد الذي كان يبتسم متعجباً مما يجري.

لم ينطق أحد، ولم يباركه أي مخلوق، لم يدر ماذا يفعل، الجميع يحدقون إليه، ومشاعر الحسد تنطق بقوة!

لم يكن لدى فريد ما يقول، لحظة تمنى فيها لو لم يكن هو الفائز، فهو يملك المال الوفير، وآخر ما كان يحتاج إليه هو الحسّاد.

قطع الصمت بانقطاع بالون آخر، طار في الهواء، إنه يحمل اسم: بسّام.

انفعل الناس، هناك أكثر من بالون، ما الذي يجري، بينما تابع المدرسون التصفيق، نظر بسام إلى البالون، ثم إلى سميّة التي كانت تنظر إليه وتصفق سعيدة.

رغم أنه الفائز الثاني، إلا أنه كان سعيداً، لربما حصل على مبلغ جيد من المال، لا إلى الشيك المفتوح بعينه، ولكن أي مبلغ سيكون جيداً.

وانطلق البالون الثالث، ونسي الجميع أمر الفائزين، بات هناك أمل كبير أن ينطلق بالونان أو ثلاثة إضافيات، البالون الثالث كان يحمل اسم: راوي.

صرخ راوي، وبكى من الفرحة، لقد فاز، فاز بأي شيء، أي

فـوز جميـل، قفـز وهلـل وركـض، أخـيراً يـستطيع أن يحـسن أحـوال عائلته.

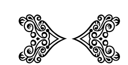
وأخيراً انطلق البالون الرابع حاملاً اسم: شادي.

رفع شادي يده سعيداً، وكانت خطيبتـه إلى جانبـه تقفـز معـه، لقد نجح.

ظلت الأبصار تحدق في البالونات، هل هناك بالون خامس؟ مـاذا بعد؟

فعلاً انطلق بالون خامس، كتب عليه: شكراً.

ساد الصمت المكان، هذا كل شيء، لقد انتهى كل شيء".



الفصل التاسع

الأربعة

قال أحد الأحفاد: "إذن لم يكن هناك فائز واحد"

قلت: "لقد نجح الأربعة معاً"

سألت إحدى حفيداتي: "وماذا سيفعلون الآن؟"

تابعت ببساطة: "انفض الناس عن الساحة، وبقي الأربعة واقفين، وبارك لهم المدرسون.

سأل راوي من فوره: من منا سيحصل على الشيك المفتوح؟.

قال أسد: أربعتكم.

فسألت خطيبة شادي: وكيف سيتقاسمونه؟.

ضحكت سمية وقالت: إنه شيك مفتوح، مهما حصل أحدهم على مبلغ فلن ينتقص من مبلغ الآخر.

قال بسّام: إذن أين نحصل على الشيك؟.

قال ضياء: هناك اجتماع لكم في الساعة الثامنة في القاعة الأولى، تعرفوا على بعضكم قليلاً ريثما يحين الوقت.

هكذا بارك الأساتذة للفائزين الأربعة، وغادرت خطيبة شادي بعد أن باركت له بحرارة الفوز بالشيك، وبقي الأربعة جالسين

يتعارفون، لا يعلمون أي مصير يجمعهم.

بدأ فريد بالتعارف حيث كان أكثرهم اندفاعية: بما أن كلاً منا يعرف اسم الآخر، فليعرف كل منا عن الفن الذي أبدع فيه ليحصل على الجائزة القيمة.

قال بسّام: ولم لا تبدأ أنت؟

قال فريد: بكل سرور. ووقف يقول في فخر: إنني ممثل، وكما يبدو أن الجميع أجمع أنني ممثل من الطراز الأول، أستطيع تمثيل الكوميديا والتراجيديا، أستطيع تقليد الصغير والكبير، أنا قادر على تقمص أي دور كان.

قال بسّام: أما أنا فأنا رسّام، التحقت بالجامعة لأتمرس على رسم الخلفيات، ولم أتصور حقيقة أن يتم اختياري من بين الفائزين بالجائزة.

عندها حمل شادي كمانه وبدأ يعزف لحناً فنيّاً مبدعاً، اختلط فيه كل من مشاعر الأمل والحزن بشكل غريب، ثم قال: أنا عازف، أجيد العزف على جميع الآلات الموسيقية، وأفضل البيانو والكمان.

أخيراً قال راوي وقد كان أصغرهم: أنا كاتب.

لم يقل راوي شيئاً آخر، فلم يعرف ما يتوجب عليه قوله لغرباء مثل هؤلاء، سينفصل عنهم بعد دقائق معدودة، ويعود إلى إخوانه بالخبر السعيد، والحياة الجديدة.

سكت الجميع، لم يعد هناك ما يقولونه، إنهم أناس من مختلف الطبقات، لا يجمع بينهم شيء أكثر من الفن بشكل عام.

كان على أحدهم أن يكسر الصمت، وقد كان فريد كالعادة، فقال: ما تزال الأسواق قائمة، ما رأيكم أن نأكل شيئاً معاً؟

وافق الجميع بشكل ميكانيكي، فقد كان عليهم انتظار الساعة الثامنة، وليس هناك ما يفعلونه.

بدأت الشمس تغرب الساعة السابعة، وقد أنهى الجميع طعامهم، وقد كان أربعتهم يأكلون أصنافاً مختلفة، فقد أكل فريد طبقاً من المعكرونة، بسّام أكل فطيرة دجاج دسمة، مع خلطة البطاطا والجبنة، مع طبق من المعكرونا والعصير، أتبعهم بفطيرة أخرى وكيس من البطاطا المقرمشة، شادي تناول عصيراً فقط، أما راوي فقد اعتاد على أن يوفر الطعام الإضافي.

مر الوقت ببطء، وشعر الأربعة بالملل، اتجهوا إلى القاعة الأولى قبل الموعد بنصف ساعة، ووقفوا أمام الباب دون حراك إلى أن حان الوقت، وفتح الأستاذ إحسان الباب.

ابتسم إحسان لهم قائلاً: مبارك، تفضلوا بالدخول.

لم يطأ أحد القاعة الأولى من قبل، ولم يشاهد من يدخل أو يخرج منها، وكأن الغموض الذي كان يحوم حول الجامعة من قبل قد تمركز

الآن في هذه القاعة.

كانت القاعة مغطاة بأفخر أنواع السجاد الأحمر، والستائر الحمراء المذهّبة، إضافة إلى مجموعة فاخرة من المقاعد الجلدية السوداء موزعة بشكل دائري حول طاولة خشبية عريقة.

انبهر الأربعة بجمال المكان، فالسقف كان مرتفعاً، تحلق فيه سبعة ثريات كبيرة، بالإضافة إلى الشموع الموزعة على الطاولة وحول الستائر.

كان جميع الأساتذة جالسين في مقاعدهم على الطاولة، وترك خمسة مقاعد، إحداها لإحسان، والباقية للمنتسبين.

الجميع كانوا يجلسون على شكل دائرة، فليس هناك من زعيم بينهم على ما يبدو، رغم أن هناك من يكبرهم، إلا أنه يجلس على الطاولة كما يجلس أصغرهم.

جلس الأربعة حيث طُلب إليهم، كما جلس الأستاذ إحسان، وبدأ أكبرهم الحديث.

مبارك لكم النجاح الباهر، أنا أدعى جهاد، كبيرالمدرسين، وكما أخبرتكم في السابق فإن جائزتكم هي هذا.

ورفع بين يديه شيكاً، كان هو ذاته الشيك المفتوح الذي عرضه في أول يوم.

تشنج الأربعة في كراسيهم، كلهم ينتظر تلك اللحظة، حتى فريد لم يستطع أن يقاوم الحماسة المتقدة في الأجواء.

عندها قال إحسان: إنكم تستحقونه بجدارة.

فقال راوي: شكراً جزيلاً، هل لنا أن نأخذه؟

ضحك ولد كان يجلس بعيداً عن المنتسبين، يبلغ العاشرة من العمر فقط، شعره ناعم بني اللون، وعيونه خضراء مثل اللآليء، يرتدي قميصاً وبنطالاً قصيراً يناسب سنه، واسمه وليد، وقال: أنتم متسرعون جداً، هذه فقط بداية المشوار.

سكت الأربعة قلقين، عندها قال أسد: هذا شيك له هدف معين.

قال فريد: هدف؟

فأوضحت سمية: أنتم مبدعون، والهدف من الشيك المفتوح أن يدعم إبداعكم.

سأل بسّام: ماذا يعني هذا؟

فقالت فتاة في الثانية عشرة، شقراء ترتدي فستاناً أبيض جميلاً، وتضع طوقاً أحمر اللون، تدعى دلع، وتجلس إلى جانب وليد: يعني أنكم ستصرفون الشيك في عمل فني.

قال شادي: أي نوع من الأعمال؟

قالت سمية: هدف هذه الجامعة هو إنتاج ما لم ينتجه أحد من قبل.

تابع ضياء متحمساً: عمل سينمائي فائق الإبداع.

قال فريد معلقاً: كثرت الأعمال السينمائية!

فقال وليد: ولكنها ليست عظيمة كفاية لتحصل على شيك مفتوح، أليس كذلك؟

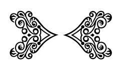
سكت الأربعة فقال جهاد: لكم أن تتعاونوا على إنتاج فيلم مبدع، لديكم كاتب، وملحن، ورسام، وممثل، كما تستطيعون التعاون مع أي مبدع تجدونه مناسباً، وحجز أي طاقم، وأي ساحة عمل، باختصار تستطيعون عمل أي شيء، فلديكم شيك مفتوح.

قال راوي: هذا هو مغزى الشيك؟

قالت دلع: طبعاً.

سكت راوي، فقد كان يأمل أن يطعم عائلته، فقالت سمية التي فهمت على الفور ما يدور في ذهن راوي: تستطيع أن تجني أموالاً طائلة من الفيلم.

ولكن هذا سيتطلب وقتاً وجهداً".



الفصل العاشر

العرّافة

قال أحد الأحفاد: "باتت الأحداث غريبة"

قالت إحدى الحفيدات: "وهل يستطيعون التعاون فيما بينهم؟ أعني أنهم مختلفون تماماً"

قلت: "هذا هو بيت القصيد، عليهم أن يركزوا على ما يجمعهم، ويتناسوا كل اختلاف"

قال أحد الأحفاد: "هل يستطيعون ذلك؟"

قالت أخرى: "عليهم أن يجدوا ما يجمعهم"

قلت: "أو أن يجدهم هم"

لم يفهم أحدهم ما قلت، ولكنني فضلت أن أتابع الرواية: "انفض المكان، والوعد قائم على تسليم الشيك المفتوح مقابل عمل فني يكون الأفضل في العالم، عمل ليس له مثيل من قبل ولن يكون له مثيل من بعد.

بسّام كان يفكر، فريد كان حائراً، شادي كان متعجباً، وراوي كان خائب الأمل.

بقي القليل من الناس في الساحات، ومعظمهم كان يغادر، حتى

أن الباعة بدؤوا يغادرون.

وقف فريد يقول: علينا أن نفكر بهدوء اليوم، ونتواعد على اجتماع في الغد.

قال راوي فوراً: ليس لدي الوقت الكافي.

قال بسّام: هل تنسحب؟

فأجاب: أريد حصتي من الشيك المفتوح.

فقال شادي: آسف لأطلعك على الحقيقة، ليس هناك حصة في الشيك المفتوح.

قال راوي: ماذا تقصد؟

قال بسام: إنه سيصرف فقط على العمل الفني الذي سنقوم به.

قال راوي: لم نتفق على ذلك.

ابتسم فريد وقال: لم يكن هناك اتفاق منذ البداية، هذه الجامعة لا تتبع أي نظام، إنها جامعة خاصة، وهدفها الآن بات واضحاً.

وقف شادي يفكر، ثم قال: ليست فكرة سيئة.

كانت هذه أول نقطة تحول في الحوار، وكانت نقطة جد إيجابية، فقد نظر الجميع إلى شادي وهو يقول: أعني أننا سنكسب المال والشهرة وكل ما نشتهي، فمن الجميل أن نثبت وجود الإبداع فينا، ونحصل على المال الذي كنا نرجو.

ابتسم فريد وقال: ها قد بدأ أحدنا يفكر بإيجابية.

قال بسام: ليست لدينا أية فكرة عما سنفعل!

قال شادي: الفكرة تبدأ من المؤلف.

فاتجهت الأنظار إلى راوي، الذي سارع يقول: أنا لم أتفق معكم بعد على شيء، ثم إن لدي إخواناً جياعاً في انتظاري، وليس لدي الوقت الكافي لصنع ما لا أدري إلى أي نهاية يؤدي بنا، فربما لا ننجح.

قال فريد: وربما ننجح نجاحاً باهراً.

قال راوي: ربما.

قال بسام: لقد جمعوا الأفضل، علينا أن نتفاءل.

قال شادي: ربما ينظر المدرسون إلينا بأمل كبير، لقد تعبوا من أجلنا.

قال راوي: وما همي بغيري، أريد فقط أن أكسب النقود.

عندها قال فريد: ما رأيك إذا ما تكفلتُ براتبك الشخصي مقابل العمل معنا؟

سكت الجميع، إنها جرأة كبيرة! فقال راوي: أنت تعطيني راتباً!

قال فريد: أعطي رواتب للجميع مقابل أن أكون القائد.

شعر الجميع بسخافة ما يقول، ولكن كان عليهم أن يختاروا قائداً، فأي جماعة ستفشل دون قائد.

بدأ ثلاثتهم يفكرون، هل يصلح فريد قائداً؟ ولكن فكرة الراتب جيدة! عندها قال فريد: لا تفهموني خطأ، سأضع عقداً أنظر فيه في نسب نتاج العمل، فلن نحصل على نفس القدر من النقود بعد نهاية العمل، فسأحصل كقائد على نسبة أكبر منكم، بما أنني سأدفع الرواتب خلال الفترة كاملة فعليكم أن توافقوا.

كان فريد يفكر بسرعة، عندها قال بسام: علينا أن نفكر بهدوء، لنتفق على اجتماع في الغد.

وافق الجميع على ذلك، وبدأ راوي يفكر في الأمر بجدية، فإذا كان في الأمر نقود إضافية فهو قادر على فعل المستحيل.

سار الأربعة ليغادروا الجامعة، وكان من أواخر الجالسين عند البوابة عرّافة عجوز، منحنية الظهر، تغطي وجهها وكفيها وكل جزء من جسدها بثياب رثة داكنة اللون، ويغطي وجهها خمار وعقود من اللؤلؤ الاصطناعي تتحرك بسكون مع نسمات الهواء، يعطي مظهرها ريبة وهيبة.

كانت تجلس على طرف خيمة صغيرة، تحوي العديد من التحف، منها النحاسية والخشبية، والعديد من الأواني المختلطة بأشكال السوائل، بعضها يحوي مخلوقات صغيرة غريبة الشكل، كلها تعطي المكان مصداقية التنبؤ.

وتجلس على كرسي خشبي رث، أمامها طاولة مستديرة مزركشة، عليها كرة زجاجية براقة، تحوم داخلها غيمة تتلون بين الرمادي والأسود والأبيض.

كانت عرّافة متميزة بكل ما للكلمة من معنى، وكانت هادئة كالأصنام، لا تتلفت مهما نظر إليها الناس، بل كان الانطباع أنها ترى الجميع من حيث لا يرونها.

لفتت العرّافة نظر الأربعة كما لفتت أنظار الناس جميعاً من قبل، ولكن الأكثر استثارة بينهم كان فريد، الذي قال: ما رأيكم بهذا؟

سأل بسّام: ماذا تعني؟

أوضح فريد: أن نسأل العرافة عن عملنا المشترك.

قال شادي: هل تظن أنها ستنفعنا؟ إنها تتنبأ فقط.

قال راوي: هي لا تتنبأ، إنها تشعوذ، كل ما تقوله مجرد أكاذيب.

قال فريد ساخراً: أجل أجل، ستبقى كذلك طول حياتك، كئيب ومشؤوم، أعط حياتك شيئاً من الإثارة.

وقام فريد بسحب الثلاثة إلى العرافة، وقال بسّام بلهجة المهزوم: يجب أن لا نفعل ذلك، هذا لا يجوز.

ولكن فريداً كان الأقوى بينهم، قال: لست مضطراً لتصديق ما تقول، فقط جرب.

اقترب الأربعة من العرّافة، فريد يتقد حماسة لإثارة جديدة في الحياة، شادي يفكر فيما يمكن أن يسمع من العرافة، بسّام يتقدم بخطوات مترددة إلا أنه لا يستطيع معارضة فريد، وراوي كان يسحبه فريد وهو يقول: لن أدفع قرشاً واحداً على هذا.

وقف الأربعة أمام العرّافة، وقال فريد من فوره: مرحباً أيتها العرّافة الخبيرة، هل لك أن تتنبئي بمستقبلنا نحن الأربعة؟

رغم أن العرّافة كانت تغطي وجهها كاملاً بالسواد، إلا أن الأربعة أحسوا بها تحملق بهم بصورة غير مريحة، حتى أن فريداً شعر برهبة من سكونها المريب.

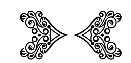
بعد برهة من التحديق، وتنقل البصر بين الأربعة، قالت العرّافة بصوت خشن وبطيء: تظنون أنكم لن تسمعوا ما هو بالغ الأهمية، تظنون أنكم بهذه الزيارة إنما تقضون وقتاً ممتعاً، تظنون أنكم ستخرجون من هذه الخيمة كما دخلتم.

سكتت العرّافة، وظل الأربعة يحدقون فيها، ثم بدؤوا ينظرون إلى بعضهم، فنظرت العرّافة إلى فريد وقالت: أما أنت فستموت في حادث سيارة.

جفل فريد، ولكن العرّافة لم تعره أي اهتمام، بل نظرت إلى الثاني وقد كان شادي وقالت: أنت ستموت في حفل زفافك.

كانت لهذه الكلمات وقع شديد على شادي، ولكنها أيضاً تابعت النظر إلى الثالث، وقد كان راوياً، وقالت: أنت ستموت في متجر معين... أنت تفهم ما أعني.

سكت راوي لا يصدق أن العرّافة ربما تعني فعلاً ما تقول، ولكنها أخيراً نظرت إلى الأخير وهو بسّام، نظرت ونظرت ثم قالت ببساطة: أنت تموت بجلطة قلبية".



الفصل الحادي عشر

وماذا بعد ؟

قال أحد الأحفاد: "من الغريب أن تتنبأ بشيء كهذا!"

قال آخر: "هل سيكون لهذا التنبؤ أثر على حياتهم؟"

ابتسمتُ وقلت: "ربما، ولكن ما عليكم أن تلحظوه الآن أن هذه هي بداية العلاقة بين الأربعة، فقد وجدوا شيئاً مهماً يجمعهم"

قالت إحدى حفيداتي: "ولكنه ليس شيئاً جيداً"

قلت: "ليس بالضرورة أن يكون كذلك، أحياناً يجتمع الناس على المصائب"

قال آخر: "ما كان عليهم أن يستهينوا بالأمر، مع ذلك لست أرى كيف سيؤثر ذلك على مجرى الحكاية"

قلت: "بل سيؤثر، ولا تنسوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى بشدة عن التكهن وتصديق الكهنة، ولكن الأربعة سامحهم الله استهانوا بالأمر، أما الآن فالوقت قد تأخر، وعليكم إكمال واجباتكم قبل النوم"

سمعت صوت اعتراض من أحفادي جعلني سعيداً أنهم انجذبوا إلى القصة، ولكنني قلت: "سنتابع في الغد، في نفس الساعة".



الجزء الثالث

تحول الأحداث

الفصل الثاني عشر
الغيب

جلست على مقعدي المعتاد، أمام النافذة، أغطي نفسي بلحاف يقيني من البرد الذي يلف المكان كل يوم.

توقف المطر، ولكن السماء ما زالت مغطاة بغيوم سوداء تنذر بتغير الأجواء في أي لحظة.

ضوء القمر كان ينعكس على الغيوم، يضفي جواً داكناً كئيباً.

تجعلنا هذه الأجواء عادة نتذكر ما نخاف، الموت، الوحدة، الكآبة، وأحياناً المجهول.

تمنى كثير منا أن يكشف المستقبل، ولكن الله حفظه لنفسه، وأطلق عليه اسم الغيب، الغيب الذي يريد الكثيرون اكتشافه، رغم أنهم متأكدون أنهم سيعرفونه يوماً ما.

أليس في ذلك استعجال غريب، لماذا تستعجل ما أنت متأكد أنك ستعرفه؟ ألا يؤمن الناس بحكم الله في الكون؟ ألا يفكر الناس أن في إخفاء الغيب حكماً عظيمة؟

من أهم الغيبيات التي يفكر فيها الكثيرون هو كيف ومتى سينقضي أجلهم.

(متى)... تحوي اختباراً شديداً للمثابرة اليومية على الطاعات، والاحتياط الدائم إلى أن يكون اليوم هو اليوم الأخير، رغم أن الأغلبية تتناسى مثل هذه الحقائق الثابتة.

ولكن ماذا عن (كيف)؟

حضر أحفادي وتحلقوا حولي، يريدون متابعة الحكاية، هذه الحكاية التي سيتحول مجراها، وتتغير محاورها، لتستعرض الحال التي أصبح عليها كل من المنتسبين الناجحين الأربعة.

كيف كان أثر تنبؤ العرّافة في حياتهم اليومية؟ وهل كان قرارهم في الاستماع إليها أكبر خطأ ارتكبوه في حق أنفسهم؟

لم تكن لدى أحفادي أي أسئلة، بل لم يكن أحدهم يتصور ماذا سيحصل بعد، فتابعت الحكاية أقول: "في اليوم التالي استيقظ بسّام على سريره الخاص في غرفته الخاصة في منزله المتواضع، كانت اللوحات الفنية المتنوعة تزين جدران الغرفة من كل زاوية، ورائحة الألوان تعم المكان.

كانت غرفته متوسطة الحجم، تتبعثر فيها الأفكار، فورقة هنا، ولوحة هناك، وأقلام في كل مكان، ما كان لأحد أن يشك أنها غرفة رسّام.

في الغرفة مرآة صغيرة لا يبدو أنه يستعملها كثيراً، وعلاّقة

أنهكت من ثقل الثياب عليها، فالقمصان كانت بأحجام مهولة يشك أحدهم أن صاحبها من بني البشر، وسرير مزدوج، وخزانة فتح معظم أدراجها باستهتار.

نزل السلالم بخطوات ثقيلة، يلقي تحية الصباح على والدته التي كانت تغادر المنزل للذهاب إلى المدرسة، أما والده فكان ما يزال يحتسي فنجان القهوة منتظراً موعد وصول حافلة العمل.

جلس بسّام إلى والده، ولم يدر من أين يبدأ، ولكنه أخبره أخيراً أنه قد نجح في الجامعة، وحصل على شيك مفتوح للقيام بعمل فني مبدع.

فهم الأب أخيراً غاية الجامعة، ولم يقف في طريق ابنه على الإطلاق، فقد كان ممن يشجعه على صقل موهبته الفذة في الرسم، أما والدته فقد كانت تريد منه أن يعمل في مجال يدر عليه بالمال الوفير، ولكن بسّاماً كان يفضل العزلة والرسم والأكل على العمل والنقود.

على كل حال سيحصل على النقود إن أتقن عمله، ولديه اليوم موعد مع الثلاثة الباقين، أما الآن فأين سيقضي نهاره؟

ارتدى بسّام أقرب قميص طالته يده، وخرج يتمشى قليلاً مبتعداً عن المنزل، ثم قرر التوجه إلى أحد المتاجر الكبيرة، استقل سيارة أجرة واتصل بصديقه ليلتقي به هناك.

كان الطريق مزدحماً، وتأخر بسّام عن الموعد كثيراً، وما إن وصلت

سيارة الأجرة إلى المتجر حتى غادرها مسرعاً، ونسي أن يدفع الأجرة.

جلس بسّام إلى صديقه الذي عاتبه على التأخر، فاعتذر بسّام معللاً تأخره بأزمة المواصلات، وما إن جلس حتى تذكر أنه نزل مسرعاً من سيارة الأجرة ولم ينظر إلى العداد، بل إنه لم يدفع الأجرة!

نهض مسرعاً وعاد إلى المكان الذي أنزله فيه صاحب الأجرة، ولكن السيارة كانت قد غادرت، يبدو أنه يئس من الانتظار.

عاد بسّام إلى صديقه يشعر بالأسى على الوقت الذي أضاعه صاحب الأجرة معه، لابد أنه مستاء جداً.

كان صديق بسّام قد طلب طعاماً دسماً، وُضع على الطاولة أمامهما.

كان منظر الطعام شهياً، طبق من المعكرونة المغطسة بالجبنة، ولحم مشوي مع خبز تشرب الدسم، ونقانق، وكبة محمّرة، بالإضافة إلى المقبلات والحلويات والأعصرة كلها وضعت معاً، لم يتمالك بسّام نفسه، فأمسك بالشوكة على الفور، وما إن غطست الشوكة في بركة المعكرونة حتى لمعت في رأسه صورة العرّافة.

رفع بسّام يده عن المائدة بسرعة، وبدأت الأفكار تدور في رأسه، هل يعقل أنه يتذكر تنبؤ العرافة الآن؟ هل سيطارده شبحها في كل وجبة! هل صحيح أنه سيموت بجلطة قلبية؟ وهل السبب هو هذا الطعام بالذات؟

تعرّق بسّام بأفكاره، فقاطعه صديقه يسأله إذا ما كانت هناك مشكلة في الطعام، ولكن بسّاماً نفى ذلك وبدأ ياكل ببطء، لا يدري هل يشعر بتأنيب الضمير، هل يعقل أن يصدق أفّاقة تؤدي السحر؟

رغم أنه كان يقنع نفسه أن العرّافة كاذبة، إلا أنه لم يستطع إكمال طبقه، جلطة قلبية... جلطة قلبية... كان كل ما يدور في رأسه.

حل المساء، واقترب موعد اللقاء، فعاد بسّام إلى المنزل مشياً وقد أوصله صديقه إلى مكان قريب من المنزل.

نظر بسّام إلى الشارع أمام المنزل فوجد سيارة الأجرة ذاتها التي كان قد نسي أن يدفع الإيجار لصاحبها، ففرح برؤيته، وركض إليه يطلب منه الانتظار حتى يحضر بعض النقود من داخل المنزل.

دخل بسّام المنزل فرحاً، فتح درجاً في مكتبه وحمل بعض النقود، عندها توقف لحظة يفكر، من أعلم صاحب الأجرة بمكان منزله؟ لقد استقله بعيداً عن المنزل!

فتح بسّام باب المنزل حائراً يسير إلى سيارة الأجرة، ولكنه توقف عندما رأى فيها العرّافة، ترتدي ثيابها السوداء، وتغطي وجهها بعقائد اللؤلؤ ذاتها، تجلس مكان السائق، وتنطلق بالسيارة بعيداً".

الفصل الثالث عشر

الواحد تلو الآخر

سكت أحفادي وكأن على رؤوسهم الطير، ربما كانت أسئلتهم أكثر من أن تذكر، ولكنني تنهدت لأفصل بين الحكاية الأولى والثانية، وهكذا بدأت بسرد الأحداث التي مر بها فريد.

"أما فريد فكان يغسل سيارته العزيزة، سيارة السباق ذات السقف المفتوح، والسمّاعات الصاخبة، رغم أن هناك خدماً في المنزل يقومون بأعمال التنظيفات، إلا أنه كان يحب أن يدلل السيارة بنفسه، بل لم يكن ليسمح للخدم أن يقتربوا منها، ولا لأحد أن يلمسها.

شخص وحيد هو المستثنى في هذه القاعدة، أخته الصغرى سرى، التي تبلغ الخامسة فقط، فقد كانت تجلس أينما يحلو لها، وتركب السيارة إلى جانب أخيها حيثما تنزه بها.

كانت سرى مدللة جداً من قبل العائلة، فهي الأخت الصغرى بين أخوين، فاتنة بشعرها الأسود الناعم، المنسدل على كتفيها، وعيونها الزرقاء، وفمها الصغير، وعيونها الحوراء.

طلبت سرى إلى فريد أن يصحبها في نزهة، ولم يكن ليرد طلباً لمدللته، فركبا السيارة وانطلقا.

اتجه فريد كعادته إلى الطرق السريعة، حيث يستمتع هناك بقيادة سيارته العزيزة بأقصى سرعة، وإشباع شعوره بالتألق بسيارة وسرعة رائعتين.

ولكن على غير العادة، ومن دون أن يشعر، لم يكن يسير بسرعة فائقة، فقالت سرى: ما الأمر؟ إن فؤاد يقود بسرعة أكبر من هذه بكثير.

ابتسم فريد وقال: لقد بتّ معتادة على السرعة.

فقالت: أنتما تقولان أن لا متعة في القيادة الحريصة.

ضحك فريد وقال: تحفظين دروسك جيداً.

وقام بزيادة السرعة أكثر فأكثر، وبدأت سرى تهتف سعيدة، لقد اعتادت على هذا النوع من الدلال، وبات جزءاً من الحب بالنسبة إليها، ولكن فريداً كان يفكر بتنبؤ العرّافة، والحادث الذي لا شك فيه، هل صحيح ما تنبأت؟ هل هذه السيارة هي حتفه؟

لمح على طرف الطريق شخصاً يقف بلا اكتراث، ولم يكن أحد ليقف على جانب طريق سريع لا يوجد فيه إلا الأشجار من كل جانب.

وبسرعة خاطفة مر فريد من جانب الشخص الذي تمكن من لمحه في لحظة، إنها العرّافة ذاتها، تقف على طرف الشارع، لا يدري ماذا تفعل هناك؟ ولكنه أبطأ السرعة وظل ينظر في المرآة ولكن سرعة السيارة جعلته يجتاز العرّافة بسرعة".

الفصل الرابع عشر

التالي

ظل أحفادي صامتين، وفضلت أن أتابع الرواية قائلاً: "أما شادي فقد كان يتجهز للقاء خطيبته، واصطحابها في نزهة قصيرة قبل موعد اللقاء.

ارتدى أفضل الثياب، واستخدم أفضل العطور، ونسّق شعره بشكل ملفت حيث ينال إعجاب الجميع.

كانت مخطوبته تسكن منزلاً جميلاً، يطل على حدائق خضراء وبساتين، بعيداً عن ضجة المدينة. كان المنزل على طراز أوروبي قديم، ينم عن ذوق رفيع، فلا عجب وصاحبه يهوى الفن.

صعد شادي الدرج الملتف، ودق جرس الباب، فأخبرته الخادمة أن قمراً كانت قد خرجت للتسوق مع زميلاتها.

اتصل بها شادي هاتفياً، فأخبرته أنها ستعود في المساء، وبما أن موعد اللقاء قد تقرر أيضاً في المساء فلم يكن باستطاعة شادي أن يراها اليوم.

قرر شادي أن يشتري لها هدية بمناسبة قبوله للعمل الكبير، فدخل متجراً للمجوهرات، وقد كان الزبون الوحيد، وبدأ ينظر في القلائد وأسعارها.

ربما كان قد اختير لعمل فني كبير، ولكنه ما يزال لا يملك المال حالياً، وكان عليه أن ينتقي ما هو مناسب.

كان عليه أن يظهر بمظهر لائق أمام قمر ووالدها، فكان عليه أن يكون حذراً في الانتقاء.

نظر إلى خواتم الخطوبة، أمسك أحدها ليجربه على إصبعه، فتذكر العرّافة تنبئه أنه سيموت في حفل زفافه، فأعاد الخاتم مكانه بسرعة، وابتعد عن الخواتم.

استثارت عينه قلادة فضية، بجوهرة حمراء مدببة، وبعض الخرزات المتلألئة حولها، أمسكها وتفحصها.

في هذه الأثناء دخل المتجر زبون آخر، وبما أنه كان يرتدي السواد فقد لفت انتباه شادي ونظر إليه، فإذا بها العرّافة، بثيابها السوداء الرثة، واللآلئ تغطي وجهها.

جفل شادي لرؤيتها، ولكن صاحب المتجر سأله عن القلادة التي يريد، فقال شادي مرتبكاً: لـ... لست أدري، كلها... جميلة.

وعاود النظر إلى الوراء حيث العرّافة، وقد كانت تنتقي بعض المجوهرات أيضاً، وسارت إلى جانب التاجر، فأخذت بعض المجوهرات، ثم استدارت وغادرت المتجر دون أن تدفع.

نظر شادي إلى صاحب المتجر وسأله: أهي من الزبائن المهمين،

أم أنها تملك حصة في المتجر؟

فسأله البائع: من هي؟

قال شادي: تلك التي خرجت الآن، العرّافة.

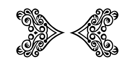
ابتسم البائع متعجباً وسأل: عرّافة!

فأكّد شادي: التي كانت قد دخلت الآن، وانتقت بعض المجوهرات.

فضحك التاجر وهو يقول: ليس في المتجر أحد غيرك.

فقال شادي: التي خرجت الآن.

فأكد التاجر: لم يدخل أحد مطلقاً".



الفصل الخامس عشر

ا لأخير

وأخيراً رويت ما حدث مع راوي وسط العيون الدهشة: "كان راوي قد انتهى من أعمال اليوم مبكراً، وعليه أن يتجهز للقاء.

جلس إلى إخوته الصغار قليلاً، اطمأن على دراستهم قدر المستطاع، ثم اغتسل وارتدى ثياباً مناسبة، وخرج مبكراً حيث قرر أن يسير على قدميه إلى الموعد.

كان طريقه يمر بين أسواق فرعيه، يبدو عليه أنه يعرف المكان جيداً، فقد كان واثقاً في سيره، لا يتلفت هنا وهناك.

مر إلى جانب حانة لبيع الخمور، تقع في زاوية بعيدة، حيث يبدأ عملها في منتصف الليل.

كان صاحبها يكنس المدخل، ولما رأى راوياً سلّم عليه بتحية عفوية، كصديق قديم وزبون يومي، وسأله عن الليلة كيف سيقضيها، ولكن راوياً لم يكن يدري بعد ماذا سيحدث بعد اللقاء، وعده أن يمر عليه فيما بعد، رغم أنه كان قلقاً، وربما لا يمر اليوم حيث أن تنبؤ العرّافة لم يفارق رأسه لحظة.

مشى راوي ولمح من النافذة شخصاً داخل المحل، إنها العرّافة!

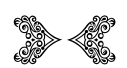
كانت تضع بعض الثلج في كأس الخمرة.

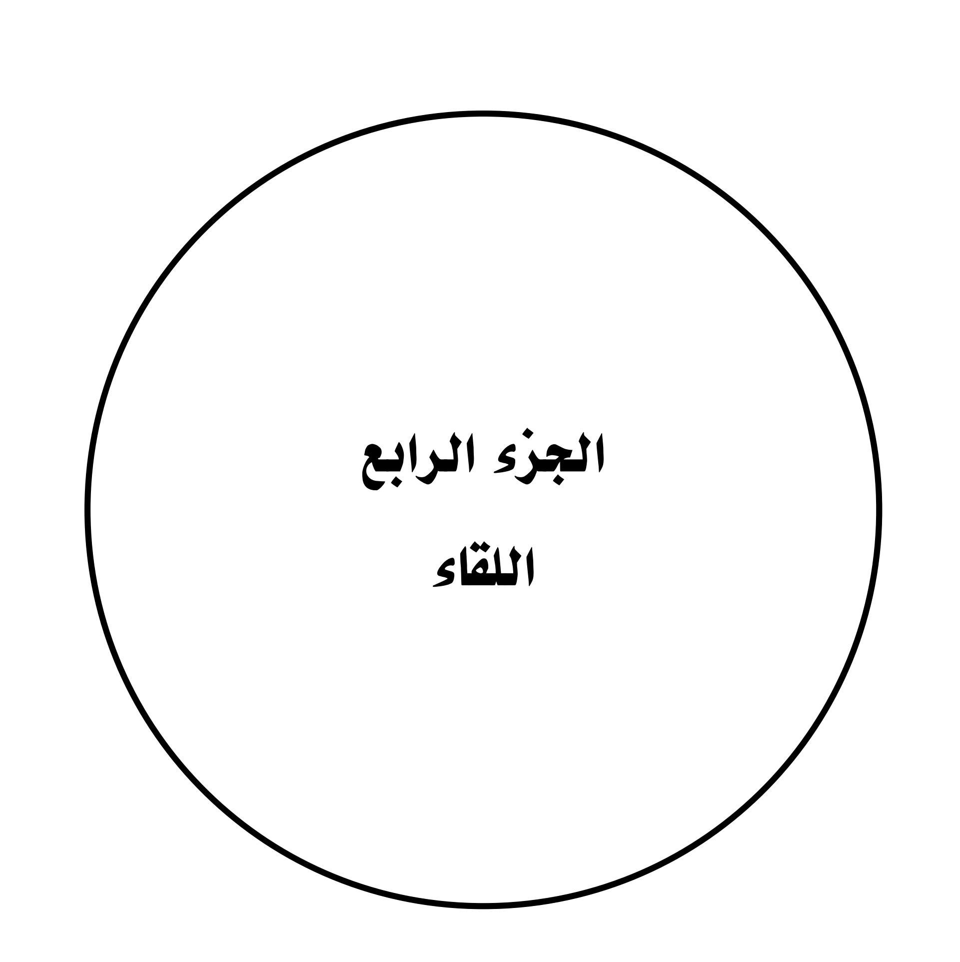
تعجب راوي لرؤيتها، وعاد يسأل صاحب المحل إذا ما كانت زبونة للمحل، ولكن صاحب المحل أجابه أنه لا يفتح المحل قبل الساعة الحادية عشرة مساء، وليس هناك أحد في الداخل.

قرر راوي سريعاً أن يدخل، فتجاوز صاحب المحل، ودخل ينظر حيث كانت العرّافة، ولكن أحداً لم يكن هناك!"

كانت عيون أحفادي قد امتلأت حيرة وفضولاً، وكان بعضهم قد بدأ يشعر بالقلق، لذلك آثرت أن أؤجل الحديث إلى الغد قائلاً: "هكذا كانت البداية، وكان شبح العرّافة يطارد الأربعة كلاً على حده، ماذا تريد؟ وماذا تنوي أن تفعل؟ هل سيرونها ثانية أم لا؟ هل ستفعل شيئاً أم لا؟ هل سيصدق تنبؤها أم لا؟ وهل الأجل قريب أم بعيد؟"

لم ينطق أحد من أحفادي، فقلت: "هذا ما سأحدثكم عنه الليلة القادمة، أما الآن فعليكم أن تحاولوا النوم".





الجزء الرابع

اللقاء

الفصل السادس عشر
اجتماع الأربعة

لا أظن أن النوم قد لاقى طريقه إلى عيون أحفادي، لابد أن كلاً منهم تشغله فكرة معينة فيما سمع، لابد أن الذهول في عيونهم قد شكل العديد من الأسئلة تحوم في مخيلتهم.

أما بالنسبة لي، فقد تابعت النظر إلى السماء، حيث كانت مجردة من كل نور، مطموسة المعالم، لا تجد فيها نجماً واحداً، حتى إن القمر كان قد غادرها اليوم.

كنت أتوقع هطول المطر في أية لحظة، كما كنت أفضل أن أتابع رواية الحكاية في جو يسوده الرعد والبرق والمطر الكثيف، ولكن لم يحالفني الحظ اليوم.

حظ! لا أصدق أنني من يلفظ هذه الكلمة، ليس هناك حظ في الدنيا، فنحن نعيش نصيبنا الذي كتب لنا قبل أن نوجد.

علام سنحصل، وأين سنكون، ومتى سنذهب، وكيف سيحدث، ومن سنلاقي، وكم سيستغرق، ولماذا كل هذا؟ كلها أسئلة ستلقى إجابتها بعد حين، ولكن الصبر الصبر.

وها هو يوم جديد، وها هي ليلة كسابقتها، وها قد تحلّق

أحفادي حولي، يرغبون متابعة الحكاية، وفي عيونهم شك في أن شيئاً جيداً سيحدث من الآن فصاعداً.

سألتهم: "هل تريدون المتابعة؟"

فقال أكبر أحفادي: "لم أتخيل أن تجري الأمور هكذا، أريد أن أعرف ماذا تكون العرّافة"

قالت أخرى: "لماذا لا يراها إلا الأربعة؟"

ابتسمتُ وقلت: "ما يزال الحديث طويلاً، وثقوا أن الأمور ستزيد تشويقاً من الآن فصاعداً"

بلع أحفادي ريقهم، فتابعت أقول: "اتجه الأربعة كل منهم تشغله أفكار محيرة، إلى حيث اتفقوا على اللقاء.

كان الملتقى في مطعم فاخر في حي مرموق من المدينة، وقد تعهد فريد على التكفل بكامل التكاليف.

كان فريد أول الواصلين، جلس إلى المائدة المحجوزة مسبقاً، وانتظر قدوم الآخرين.

كان المطعم برّاقاً، محاطاً بأجمل التحف واللوحات، ذو تصميم وتناسق عجيبين، وطلّة جميلة على المدينة، وأنغام جميلة من الموسيقى.

حضر شادي، ثم دخل بسّام، وكان راوي آخر الواصلين.

كانت هناك نظرة مشتركة بينهم، إنها الحيرة والتفكير العميق

بأمر غير منطقي، وأبعد ما يكون عن الواقع.

تخيل كل واحد منهم أن الأمر سيكون سخيفاً إذا ما علم أحـدهم بما جرى، وأن الجميـع سيـسخر حيـث أن زيـارة العرّافـة لم تكـن إلا للمتعة.

لم تفارق الأحداث رأس أحـدهم، ولكـن فريـداً حـاول أن يكـسر الصمت قائلاً: هل قررتم من سيكون القائد؟

كانت ردة الفعل مختلفة تماماً عما كانت عليه بالأمس، فقد هز الجميع رؤوسهم بالتأييد وكأن الأمر لا يعنيهم.

سكت فريد، إنه لا يحـس بمتعـة في المنـصب الجديـد، وحـضر الطعام، وبدأ الأربعة تناوله دون أي حديث، بل إن بعـضهم قـد سـرح بعيداً حيث نسي تناول اللقمة التالية.

كان من المفترض أن تناقش الكثير من المواضـيع، ولكـن أحـداً لم يبدأ الحوار.

أخيراً أحـس فريـد بمـسؤولية منـصبه للمـرة الأولى، بـل ربمـا بشعور المسؤولية للمرة الأولى في حياتـه، وقال: علينا أن نفكـر بجـد في المشروع الذي سنقوم به، وتذكروا أن الشيك لن يكون مـن نـصيبنا إن لم نعمل بجد.

أيضاً لم تكن هناك ردة الفعل المرجـوة مـن هـذه الجملـة، فتـابع

فريد قائلاً: على الأقل علينا أن نقرر في هذه الجلسة المهام الملقاة على كل منا.

عندها قال بسّام: من الواضح أن المهام قد وزعت مسبقاً، فكل منا له موهبته الخاصة.

قال فريد: نريد فكرة مشتركة للرواية، ماذا تقترحون؟

سكت الجميع، فنظر فريد إلى راوي قائلاً: أنت كاتبنا، ماذا تقترح؟

أجاب: أستطيع الكتابة في أي مجال تريدون، قرروا ما شئتم.

استغرق النقاش نصف ساعة حول الموضوع الأساسي للحكاية، وشيئاً فشيئاً نسي الأربعة أحداث اليوم وأخذ الحوار كامل تركيزهم.

امتد الاجتماع ساعة أخرى، وقدم العصير مع طبق من الفواكه الطازجة للجميع، وبدا الإرهاق عليهم لكثرة التفكير، وأخيراً قرروا المغادرة واللقاء غداً في المكان نفسه.

اتجه الأربعة صوب الباب، وكان يقف عنده موظف أنيق يحمل أوراقاً للزبائن، كل زبون ينتقي ورقة يكشف ما بداخلها، ويقرأ نصيحة اليوم، أو حكمة المستقبل.

أخذ الأربعة أوراقهم وغادروا، وقام كل منهم بفتحها على حده.

(لم يكن ذلك وهما) كان ما كتب داخل الأوراق الأربعة.

الفصل السابع عشر

في كل مكان

لك أن تتصور الشوق في عيـون أحفـادي إلى مـا سـيجري بعـدها، وأخيراً بدأ المطر يهطل، وبدأت أشعر بحماسة الرواية.

نطق أحد أحفادي بسؤال بعد طول صمت: "ألن يحـدّثوا بعـضهم بما يجري؟"

قالت حفيدة أخرى: "سيكون ذلك أفضل"

أجبتـهم: "ولكن أحداً منهم لا يعرف ما جرى مـع الآخـر، وكـل منهم كان يقصد العرّافة للمتعة فقط، ولم يعلـم أحـد مـنهم أن هـذا مـا ستجره مغامرتـهم الصغيرة"

قالت أصغر حفيداتي: "كان هذا سيئاً"

ضحكت وقلت: "نعم، وقد تساهلوا في الأمر كثيراً"

فقال حفيد لي: "وماذا جرى بعدها؟"

تابعت الحكاية: "عاد بسّام يفكر فيما جرى، ماذا تكون العرّافة؟ وماذا تريد؟ بدأ يشعر بالخطأ الفادح الذي اقترفه بالالتجاء إليها.

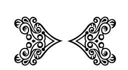
لم يستطع النوم تلك الليلـة، ومـا إن طلـع الفجـر حتـى ارتـدى ثيابه ومشى في الشارع يستنشق الهواء العليل.

ساعة، ساعتان، ثلاث ساعات، بدأ الناس ينطلقون إلى أشغالهم، وازدحمت الطرقات.

جلس بسّام على إحدى المقاعد على الطريق، يحدق في الناس يسيرون في جميع الاتجاهات، كلٌ يعلم وجهته إلا هو.

ما يزال يفكر، ويفكر، ماذا يفعل؟ وهل هناك شيء يفعله؟ وهل كان الوحيد الذي استلم تلك الرسالة في الورقة أم أن الجميع معنيون؟

نهض من الكرسي لا يدري أين سيذهب، ولكنه ما إن مشى حتى سمع صوتاً يرتطم بالكرسي الذي كان يجلس عليه، نظر خلفه فإذا بخرزات لؤلؤية سقطت وتناثرت من على الكرسي، نظر إلى أعلى، لا يوجد شيء يسقط منه شيء كهذا! من أين جاءت تلك الخرزات؟ إنها تشبه تماماً خرزات العرّافة!



الفصل الثامن عشر
السيارة

ظل أحفادي صامتين، فتابعت الرواية: "أما فريد، فقد كان يعتني بسيارته كعادته كل صباح، غسلها، ولمّع مقودها، وكنس مقاعدها بيده.

كانت هذه هوايته في كل عطلة، ينهض في الصباح الباكر ليشمّر عن ساعديه، ويبدأ التنظيف. حتى أن الحوادث السابقة لم تؤثر في روتينه الأسبوعي.

قرر هذا الأسبوع أن يشتري بعض الأقراص الجديدة، لعله يستمتع بها في العطلة، أو تساعده على التفكير في إبداع يقدمونه أخيراً.

استقل سيارته الجميلة، واتجه إلى أقرب مجمع لبيع الأقراص، واقتنى منها ما يناسبه، ثم عاد إلى السيارة يقلب في الأقراص وما جلب.

لاحظ فريد صورة بين الأقراص، إنها صورة فوتوغرافية ملتقطة في منزله، إنه ينظف السيارة، من أين أتت تلك الصورة؟ ومن التقطها؟

ولكنه عندما دقق النظر، لاحظ وجود العرّافة في الصورة على سطح المنزل تراقبه وهو ينظف سيارته".

الفصل التاسع عشر

الخطيبة

ظل أحفادي ينتظرون التالي، فتابعت الحكاية: "لم يستطع شادي أيضاً أن ينام الليلة، فكر كثيراً في أمر العرّافة ولكن دون جدوى.

من تكون؟ ماذا تريد؟ لماذا تلاحقه؟

هل للشيك المفتوح علاقة بذلك؟ هل تنوي أن تسرقه؟ ولكن كيف؟

ولماذا تلاحقه هو بالذات؟ هل فعل شيئاً معيناً دون الباقين؟ هل هو مميز جداً عن الباقين؟

طلع الفجر أخيراً، وقرر أن يزور خطيبته بأسرع وقت علّه يريح نفسه من التفكير العقيم.

تعجبت خطيبته لقدومه في وقت مبكر، وعلل ذلك بشوقه الشديد لها.

جلس إليها، وبعد حديث قصير نظر إلى قلادتها وتذكرها جيداً، إنها ذات القلادة التي كان يحدق فيها في محل المجوهرات عندما دخلت العرّافة، قلادة فضية، بجوهرة حمراء مدببة، وبعض الخرزات المتلألئة حولها، إنها هي بلا شك!

صرخ قائلاً: من أين لك بهذه القلادة؟

كانت ردة فعله مبالغاً فيها لدرجة أخافت خطيبته، ولكنه كرر السؤال مصراً عليها، فقالت باستهتار واضح: شخص أهداني إياها.

فصرخ قائلاً: من؟

قالت: ما بالك انفعلت هكذا؟

ولكنه أكّد عليها: قلت من أعطاك القلادة يا قمر؟

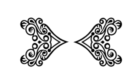
أجابت: شخص أهداني إياها لأنني كنت أبدو جميلة.

فقال: رجل!

فابتسمت قائلة وهي لا تعي ما يرمي إليه: هل تغار إلى هذا الحد؟

ولكنه أكّد عليها ثانية: رجل أم امرأة طاعنة في السن؟

لم تفهم قمر مغزى كلامه، وظل الأمر محيراً لكلا الطرفين".



الفصل العشرون
الأم

انبهر الأحفاد بما يجري، فقد بات الوضع غريباً، فقالت إحدى الحفيدات: "يبدو أن قمراً لا تهتم بالتفاصيل كثيراً"

فأجبت: "كانت قمر شخصية سطحية، تحب المظاهر والثياب، والتباهي أمام الناس"

قالت أصغر حفيداتي: "هل يحبها؟"

أجبت: "ربما"

شعر أحفادي أن لحكايتهما تكمله، ولكن كان علي أن أتابع الحكاية لأروي ما جرى لراوي.

سألت إحدى الحفيدات: "هل يداوم راوي فعلاً على الذهاب إلى حانات الخمور؟ ألا يعرف أن هذا حرام؟"

أجبتها: "كان ضعيفاً تجاهها، فقد كان يظن أن بدوامه عليها ستتحسن حالته النفسية، ولكنه لم يكن يعلم أن أحواله تتدهور يوماً بعد يوم"

فقال أحد أحفادي متحمساً: "ماذا فعلت العرّافة معه؟"

فتابعت الرواية أقول: "راوي غادر الاجتماع سيراً على الأقدام،

ومر إلى جانب المقهى ذاته.

قرر الدخول وشرب كوب خمرة رخيص الثمن، وجلس في مقعد بعيد عن المقعد الذي لمح فيه العرّافة.

رغم أنه يذكر العرّافة، رغم أنه يذكر وجودها هنا، رغم كل شيء لم يستطع أن يقاوم الدخول.

شرب إلى أن نسي ما قرأ، ونسي كل ما جرى خلال اليوم، وسار مترنحاً إلى المنزل.

أمر واحد هو الذي لم ينسه رغم الشرب الكثير، قبر والدته، فقد كان يمر عليه كل يوم.

دخل راوي المقبرة مترنحاً، وكان الظلام قد غطى المكان، واقترب من قبر والدته ووقف أمامه يقول: مرحباً يا أمي، آسف أنني أقف بهيئة غير مناسبة، ولكنني أردت الوقوف إلى جانبك ولو للحظات.

كان الهدوء مخيفاً، ولكنه لم يكن يشعر بشيء أبداً، ولم يكن يحس أنه الوحيد الذي يقف في المقبرة في هذا الوقت المتأخر من الليل.

جلس ينظر إلى القبر، يقول: لقد تدهورت أحوالنا، ولم أعد أدري ما أفعل، إخواني جياع، يحتاجون إلى العون، وكلما كبروا كلما ازدادت حوائجهم، بت مديناً بديون لن أقدر على تسديدها ما حييت.

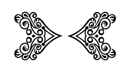
سكت وتنهد ثم تابع: آه لو كنت إلى جانبنا، آه لـو كـان والـدي يعيش معنا، هل كنت سأقف مترنحاً في ساعات الليل هذه؟

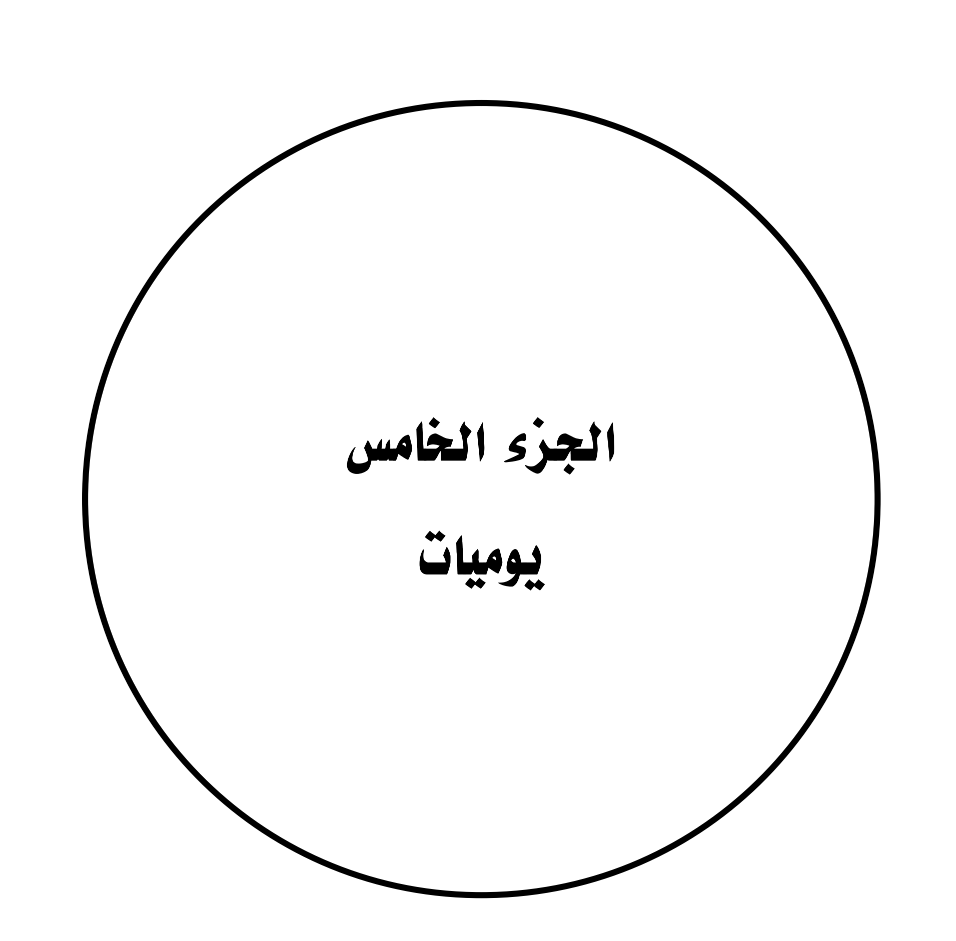
عندها لمح راوي الرمل يتحرك أمام القبر، هنـاك شـيء يـسحب الرمل إلى الأسفل!

اقترب راوي من الرمل لينظر ماذا يجري، هناك شـيء يتحـرك تحت الرمال، عندها بدأت يد تمسك سـواراً مـن اللآلـئ بـالظهور مـن تحت القبر.

فزع راوي، وركض خارج المقبرة بقفزات طويلة، وركض قـدرما ساعدته قدماه على ذلك".

خاف أحفادي، فقد كانوا يفزعون من أحاديث القبـور، فقـررت أن أخفف عنهم الليلـة، وأن أتـابع الحـديث في الليلـة المقبلـة، إذا مـا استطاعوا تحمل المزيد من الأحداث الغريبة".





الجزء الخامس

يوميات

الفصل الحادي والعشرون

حياة رتيبة

ركزت ظهري على كرسيّي الهزاز، أرقب ذات المنظر الذي أجلس أمامه كل يوم.

قد يظن بعضهم أنه أمر ممل، أو أن الشيخوخة أدت بي حتى إلى أن أفضل تكرار المناظر نفسها، والجلسة نفسها، والحديث نفسه، ولكن هذا لم يكن صحيحاً.

السبب في تكراري لهذا المنظر هو تجدده كل يوم، وانفتاحه عن صفحة جديدة في كل مرة أنظر إليه.

قمر، نجوم، غيوم، ألوان السماء المتعددة، الغروب، الجبال، الأزهار، أصوات العصافير، المطر، البرق، الرعد، والثلوج أحياناً.

اعتاد الجميع أن يمروا على كل هذا باعتياد، ولا يلحظون العادات إلا عند فقدانها.

إذن ماذا ننتظر؟ أن نفقد القمر؟ أن نفقد النجوم؟ أن نفقد المطر؟ وماذا بعد؟

وطبعاً لا يكتمل المظهر إلا بأحفادي القادمين إليّ بخطوات سريعة ليتابعوا الحكاية.

قال أحد أحفادي: "هل نتابع الحكاية؟"

قلت: "أنا جاهز في أي وقت"

"ألـن يتحـدثوا إلى بعـضهم عما جـرى، لقـد عرفـوا العرّافـة جميعهم"

"إنهم بحاجة إلى فرصة تجمعهم لذلك"

"وهل ستسنح هذه الفرصة؟"

فتابعت حديثي قـائلاً: "سـنرى عمّـا قريـب، أمـا الآن فعلـيّ أن أحدثكم عن حياة بسّام اليومية.

كما سبق أن أخبرتكم أن بسّام يعيش حياة روتينية مملة، أوضح لكم الآن يومياته بالتفصيل.

يستيقظ بسّام الساعة الثانيـة عـشرة ظهـراً، والـده ووالدتـه قـد خرجا إلى العمل في الصباح الباكر.

يتجـه إلى الهـاتف، يتـصل بالتوصـيل المنزلـي، ويطلـب وجبـة جاهزة إلى المنزل.

يغـسل وجهــه، ويـصلي الظهــر، ويرتــب سـريره إلى أن تــصل الوجبة.

إنها بيتزا بالدجاج، مع عصير غازي وبطاطا.

يتنـاول بـسّام الفطـار -كمـا يـسميه- بـنهم، ويـشاهد أي فـيلم

يعرض على التلفاز إلى الساعة الثانية ظهراً، حيث تتراكم أكوام الطعام حوله في أرجاء الغرفة، ويستلقي على الأريكة أمام التلفاز.

في الساعة الثانية يجلس إلى الحاسوب، ويبحث في الإنترنيت عن رسومات جديدة، ورسامين صاعدين، ويتحدث إليهم ويناقشهم في مستقبل حياتهم ومصير أعمالهم.

وإلى النتيجة نفسها، ليس هناك من فرص عمل قريبة، الجميع يعاني نفس المشكلة، ليس هناك وظيفة تناسب اهتماماته، يغلق الحاسوب الساعة الخامسة، ويلاحظ عودة والديه منذ ساعات، كلاهما منشغل.

يخرج إلى مطعم مختلف كل يوم، يتناول غداءه مع بعض أصدقائه القديمين، أيضاً لحم وبطاطا، ثم يتنزه في الساعة السابعة في الحديقة العامة إلى الساعة التاسعة مساء.

في الساعة التاسعة يعود إلى المنزل وقد حدق في الكثير من الناس خلال اليوم، وكوّن أفكاراً جديدة لرسومات مختلفة.

يمسك بالقلم، ويرسم على ما يحلو له، من قصاصة ورقة صغيرة إلى جدران المنزل، ويستخدم الألوان التي تناسبه، من قلم الرصاص إلى ألوان الحاسوب، ويتابع الرسم إلى الساعة الثالثة صباحاً.

هذا كان يوم بسّام، ولم يعد يميز بين أيام الأسبوع، فيوم السبت مثل يوم الجمعة تماماً.

حاولت والدته أن تحدثه قليلاً عن تغيير الـروتين، عـن وظيفـة مؤقته على الأقل، عن الالتحاق بمركز رياضي، ولكن لا جدوى.

أخيراً فتحـت الجامعـة أبوابهـا، والتحـق بهـا، وفـاز بالـشيك المفتوح، وفتحت الآفاق أمام إبداعه الشخصي، وكـل مـا كـان يحلـم بـه بات الآن قريب المنال.

ولكن الروتين ما يزال كما هو! متى سيبدأ العمل الجدي، وهـل سيبدأ؟ إذا لم يتفقوا علـى العمـل بجـد فـإن كـل آمالـه سـتذهب أدراج الرياح. هل سيرضى؟

هل يريد فعلاً أن تتغير حياته أم أنه كان سعيداً بهـا كمـا هـي؟ هل فعلاً يريد أن يعمل؟

إنه لا يدري، ولكن الروتين اليومي كـان قـد طغـى علـى حياتـه بشكل كبير، ولم يعد يتخيل أن يندمج في مسؤولية ما.

والآن جـاءت العرّافـة لتكـسر الـروتين بقـوة، إنــه يـشعر أنــه مراقب، لقد أخبرته أنه سيموت بسكتة قلبية، وماذا تريد بعد؟

حتى وإن كان سيموت بـسكتة قلبيـة، فهـذا لا يعـني أن الأمـر قريب، فمعظم الناس يموتون بالسكتة!

والتكسي، واللآلئ؟

وماذا بعد؟

هل يستطيع أن يتناسى كل ما جرى؟

ماذا عن الباقين؟ ما كانت الرسالة التي استلموها من المطعم؟ هل كان الوحيد الذي استلم تلك العبارة الغريبة؟

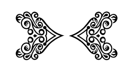
موعد الاجتماع التالي هو الساعة الثامنة مساء في مطعم آخر كما عيّن فريد، وهل يصلح فريد قائداً للفرقة؟ ربما كان هذا آخر همه.

رغم كل هذا التفكير، استوقف بسّام نفسه في محل لبيع الفطائر السريعة، واختار فطيرة باللحم والبطاطا كالعادة.

بدأ بسّام يقضم أول قضمة حتى سمع صرخة من داخل المطعم، نظر بسرعة إلى حيث الصوت، فإذا بتجمع من الناس يصرخون عندما سقط أحد الزبائن صريعاً على الأرض أثناء تناوله الطعام.

لم يستطع بسّام الاقتراب حيث بدأ عمّال المطعم يدفعون بالناس إلى الابتعاد، وبدؤوا الإنعاش القلبي إلى أن حضرت سيارة الإسعاف.

ظل بسّام يرقب السيارة إلى أن غادرت، وفقد شهيته لكل طعام، ووضع فطيرته على الطاولة وخرج".



الفصل الثاني والعشرون

مغامرات

قالت إحدى حفيداتي: "لا علاقة للعرّافة بذلك"

قال آخر: "ما هذا الحظ العجيب!"

ابتسمت أقول: "هناك رسائل تصلنا في الأوقات المناسبة"

قال أكبر أحفادي: "بل إنه وقت غير مناسب أبداً"

ضحكت وقلت: "ربما"

عندها قالت إحدى حفيداتي: "لنتحدث عن شخص ممتع، فريد مثلاً"

عندها تابعت أقول: "أجل، فريد كما تعرفون شخصية مندفعة، ولكن الأحداث السابقة تؤثر في أي شخص طبعاً.

ولكن لنعد قليلاً لنستعرض يوميات فريد.

يستيقظ فريد في التاسعة صباحاً، يتناول طعام الإفطار مع أخيه وأخته الصغيرة، ثم يتجه من فوره إلى السيارة.

لم تكن تلك عادته وحده، فقد كانت لدى أخيه العادة نفسها، فلكل منهما سيارته الخاصة، وكلاهما يعتني بها بشكل ملحوظ.

أما الأخت الصغيرة المدللة فقد كانت تخرج مع أخويها بالسيارة

إلى أي مكان، وكانت تستمتع بلحظات السرعة والمسابقة في الطرقات العامة.

بالنسبة لفريد فإن كل يوم يجب أن يكون مميزاً، ولكل يوم طعم ومغامرة، وهكذا اعتادت أخته سرى على المغامرة اليومية.

مثلاً خرج فريد معه سرى إلى السوق، وطلب وجبة لكليهما، دفع الحساب مسبقاً ليتجه مع سرى إلى متجر الألعاب لتشتري لعبة.

وحين صار الطلب جاهزاً عاد فريد وحده إلى المطعم، واستلم الطعام وخرج، بعد دقيقة دخل فريد مع سرى إلى المطعم يطلبان الوجبة.

تعجب صاحب المطعم، وأخبره أنه أعطاه الوجبة للتو، ولكن فريداً قال إنه لم يستلمها، وكذلك أكدت سرى أنهما لم يعودا إلى المطعم إلا الآن!

بقي صاحب المطعم في حيرة من أمره، ولكن فريداً بدأ ينزعج من المعاملة الرديئة للمطعم، وأنه قد دفع مسبقاً لطعام لم يستلمه.

ارتبك صاحب المطعم وأعد لهما طعاماً جديداً على حساب المطعم، وأخذا الوجبة بانزعاج وغادرا.

بعد خمس دقائق عاد فريد وحده، واعتذر لصاحب المطعم أنه لم يدفع ثمن الوجبة التي أخذها، فدفع الحساب وتعجب صاحب المطعم لما جرى.

عندها فتح فريد باب المطعم، ودخل مع سرى ليجد صاحب المطعم نفسه يقف أمام نسخة مطابقة للشخص ذاته!

كلاهما حليق الشعر، ذو لحية صغيرة متشابهة، في الطول نفسه، في العمر نفسه، في الحجم نفسه! إنهما نسخة متطابقة!

ضحكت سرى وهي تنظر إلى صاحب المطعم، وقالت: إنه الضحية الثالثة هذا اليوم.

ضحك فؤاد، وهو الأخ التوأم لفريد وقال لصاحب المطعم: لقد كانت معك الكميرا الخفية، شكراً لسعة صدرك وحسن معاملتك.

ضحك صاحب المطعم، وبروح رياضية اجتاز الموقف.

وخرج الثلاثة يضحكون.

اتجهوا إلى الشاطئ، وتناولوا المثلجات، وقرروا أن يلعبوا كرة اليد.

ذهب فريد إلى المواقف حيث سيارته ليحضر منها الكرة، اتجه إلى صندوق السيارة الخلفي ليفتحه فإذا بالسيارة تقطر شيئاً ما، إنه لون أحمر يخرج من الصندوق!

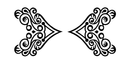
تردد فريد في فتح الصندوق ولكنه تمالك نفسه وفتحه ببطء، وفوجئ بجثة فتاة مطعونة في الداخل، ملطخة بالدماء!

ركض فريد تاركاً السيارة كما هي، واتجه فوراً إلى أخيه فؤاد

على الشاطئ يلهث بشدة، ولم يستطع شرح الأمر حيث أنه لم يستطع أن ينطق بما رأى، كما لم يستطع أن يذكر ذلك أمام أخته الصغيرة، ولكنه أمسك ذراع فؤاد وسحبه ليركض معه.

وصل فريد مع فؤاد الذي لا يدري بعد ماذا جرى لأخيه، إلى المواقف، واتجها صوب سيارة فؤاد، فنظر فؤاد إلى الصندوق الخلفي لسيارته فوجده مغلقاً! إنه متأكد أنه تركه مفتوحاً! كما أن السيارة نظيفة بالكامل، وليس هناك آثار دماء على الأرض!

نظر فؤاد إلى أخيه متعجباً، ولكن فريداً فتح صندوق السيارة بسرعة، فلم يجد شيئاً! هل كان يتوهم؟".



الفصل الثالث والعشرون

التجهيزات

هتف أحفادي معاً: "يالِلاه!"

قالت إحداهن: "هل كان يتوهم فعلاً؟"

قال أحدهم: "إن كان ذلك من فعل فاعل، فلماذا لم يُوقع به"

قال آخر: "جثة كهذه كفيلة بإلحاقه بحبل المشنقة الأكيد"

قلت: "ربما، وربما كان يتوهم فعلاً"

قالت أصغر حفيداتي: "هذا ليس عدلاً، أخبرنا هل كان ذلك حقيقة أم خيالاً؟"

ضحكتُ وقلت: "ليس الآن، ألا تودون معرفة المزيد عن الآخرين، راوي وشادي؟"

قالوا معاً: "طبعاً"

قلت: "كما تعرفون، فشادي عازف طموح، تعرّف على قمر في إحدى الحفلات الكبيرة لعازفين مشهورين، فقد كانت بصحبة والدها، شعرها كان كستنائياً ينسدل بتدريج جميل على كتفيها، وعيونها كبيرة تجملها الزينة من كل جانب، كما كانت ذات شفة جذابة، وطول فارع، وثياب أنيقة قرمزية اللون.

تعرّف شادي على والدها حيث كان أحد ممولي الحفلة، وكان يرجو أن يشارك في حفلة راقية كهذه، ويعزف أمام حضور كهذا، وخلال الحديث تعرف على قمر التي جاذبته أطراف الحديث، وتقرّب إليها أملاً في أن يقوم والدها بمساعدته في تحضير حفل خاص به ينطلق فيه إلى النجومية.

لم يطل الحديث الرسمي طويلاً، فبعد أن عرف القليل عنها، استطاع أن يتتبع أخبارها، وأن يتحدث إليها مرة أخرى.

أخيراً أخذ الحديث مساراً جدياً، وتقدم شادي لخطبة قمر، ووافق والدها حيث كان يرى في شادي مستقبلاً باهراً.

أقيم حفل الخطبة في فندق فاخر، اضطر لأجله أن يستدين شادي ثلاثة أضعاف ما خطط من أجله، مما أدى إلى تأجيل خطة الزواج عاماً كاملاً.

بينما كان شادي يجمع المال اللازم للزواج، كانت قمر تصرف هنا وهناك دون اكتراث، وغالباً ما كانت تشتري ما هو فاخر، فيضطر شادي إلى إهدائها ما ليس بأقل من ذلك.

كان كلما خرج معها إلى مطعم كانت قد عرفت مطعماً أفضل منه، وكلما أحضر لها جوهرة كانت تملك أثمن منها، وكلما اشترى لها ثوباً كان عندها ما هو أرقى، ولكن كل ذلك كان يهون للمخطط الأكبر.

كان يحاول أن يسألها عن ماهية المنزل الذي سيسكنونه، ولكنها لم تجبه جواباً واضحاً على الإطلاق، كل ما كان يهمها أن تكون معه، وأن يسعدها.

كان هذا رداً لطيفاً، ولكنه لم يشعر شادياً بالارتياح يوماً، فلم يكن جواباً صريحاً واضحاً، عليه أن يوفر ما هو مناسب حتى لا يخذل والدها.

ترك شادي الأمور تسير على ما هي عليه، إلى أن ظهرت الجامعة، وفتحت أبوابها، ونجح في أن يكون من الفائزين بالجائزة، ولكن كان كل شيء بعيداً بالنسبة لشادي، الشيك، الجائزة، الفيلم، حتى الزواج، كل شيء يبدو بعيداً.

وفوق كل هذا ظهرت العرّافة، لا يدري أي شبح هي، وماذا تريد؟ وهل تتبعه دون غيره من الناس؟ وهل تنوي أن تؤذيه أو أن تؤذي قمراً؟

ماذا عن متجر المجوهرات؟ ماذا عن القلادة؟ لقد تبعت قمراً وعرفت علاقته بها دون شك، إنها تلاحقه وتعرفه.

كان هذا شعوراً مخيفاً، ولكن ما المغزى من كل هذا، وماذا فعل؟ هل بسبب الجائزة؟ هل يريد أحدهم أن يهدم حياته غيرة منه لحصوله على الجائزة؟ وهل حصل عليها فعلاً؟ إنه لم ينل منها شيئاً إلى الآن، ولا يعرف إذا ما كان سيحصل عليها.

ذهب شادي إلى الشاطئ وحمل كمانه وبدأ يعزف، لعله يخفف من التوتر الذي بات يحيط حياته في كل جانب.

عزف مقطوعة هادئة، وتجمع حوله بعض المتنزهين في الشط، لقد أثنوا على إبداعه كثيراً، وشعر أخيراً أن هناك بصيص أمل، إنه يملك الموهبة، وعاد إلى فخره وزهوه، إنه قادر على فعل المستحيل، والجميع يتمنون أن يكونوا مثله، ومن هؤلاء الناس ليثنوا عليه، إنهم ليسوا الجمهور المطلوب، إن جمهوره هناك في المسرح بانتظار نجم المستقبل.

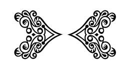
انفض الناس من حوله، ولفت انتباهه من بينهم فتاة وشاب في مقتبل العمر يمسكان ببعضهما في شغف، إنهما يرتديان خواتم الزواج، لابد أنهما حديثا الزواج.

تخيل نفسه وقمر أخيراً في هذه الصورة، بل ربما أجمل، وقد حقق له والدها كل أمانيه، وتمت له الحفلة بنجاح.

ثم نظر إلى البحر، كانت هناك الكثير من الزوارق السياحية تحمل المحبين فيها، تتجول في الأجواء الجميلة.

عندها لاحظ في إحدى الزوارق التي تحمل ما يقارب العشرين راكباً، العرّافة بينهم! إنها تسير إلى مؤخرة المركب دون أن ينتبه إليها أحد.

شعر شادي بالقلق لوجودها هناك، وقد كان قلقه في مكانه، حيث كانت لحظات وبدأ القارب بالغرق، وقفز الجميع إلى الماء".



الفصل الرابع والعشرون
ظروف

دهش الأحفاد لذلك، العرّافة ثانية! والآن بقي الحديث عن راوي: "كما سبق وأخبرتكم أن راوياً يعيش ظروفاً صعبة، ولكن أحداً منكم لم يتصور مدى الصعوبة التي يواجهها فعلاً.

فراوي لديه أختان وأخ يصغرونه في السن، وما يزيد المشقة عليه أن أخاه الأصغر سامي خلق بعاهة دائمة، فذراعاه قصيرتان، ومستوى ذكائه محدود جداً، مما يجعله عرضة للكثير من المخاطر حتى في أسلم الأماكن.

فذات يوم قام بابتلاع أقلام الرصاص من على الطاولة، كما قام بنتف السجاد وابتلاعه، ومشى فوق مزهرية مما أدى إلى كسرها وجرح قدميه بجروح عميقة.

بلغ سامي العاشرة من عمره وهو على هذه الحال، وغالباً ما كان يقضي بضعة أيام في المستشفى، وكان على راوي أن يسدد التكاليف، وأن يبيت معه تاركاً أختيه في المنزل وحدهما.

رشا كانت أكبر الأختين، تبلغ الخامسة عشرة من العمر، تدرس في الصف التاسع الابتدائي، ذلك لأنها انسحبت من الدراسة

لسنتين متتاليتين بعد أن أصيبت بصدمة عصبية بعد وفاة والدتها، وترك والدها المنزل.

وهناء كانت في الثانية عشرة، رغم أنها كانت الأقرب إلى الأم إلا أنها استطاعت أن تتجاوز الأزمة بنجاح، وكانت من الأوائل في جميع المراحل الدراسية، كما أنها كانت تقدر جهود أخيها الأكبر راوياً في العناية بالمنزل.

باستعراض بسيط لحياة راوي نبدأ معه الأحداث اليومية، فلم يكن يومه روتينياً في العادة، إنه في الغالب ينام بين الثلاث إلى الأربع ساعات يومياً، يستيقظ في الصباح الباكر ليجهز الفطار لإخوته، ثم يحضر غداءهم الذي سيتناولونه في المدرسة، ويحاول الدراسة قليلاً.

ثم يقوم بإيصال الأختين إلى المدرسة المجاورة للمنزل، ويقوم باسطحاب سامي إلى مدرسة خاصة بذوي الاحتياجات الخاصة، والتي تبعد مسافة ثلاثة كيلومترات عن المنزل.

بالنسبة لراوي كان قادراً على السير تلك المسافة يومياً، ولكن الوضع كان صعباً على سامي، فكان يستقل الحافلة من أجله، وغالباً ما كان يواجه الكثير من المتاعب بتحديق الناس بأخيه الصغير.

كان سامي يشعر باختلافه عن الناس، رغم أن ذكاءه كان محدوداً إلا أنه كان يشعر بقوة، وهذا ما كان يزيد الأمر صعوبة على راوي.

بعد ذلك يتجه راوي إلى العمل تاركاً دراسته جانباً، فيقوم ساعة بأعمال حفرية وبنائية، وتارة بأعمال تسويقية بسيطة، وتارة بتوزيع الجرائد الصباحية، فقد كان يعمل ما يتيسر له من عمل، وأحياناً أكثر من عمل خلال اليوم الواحد.

لم يكن يتناول شيئاً بين الفطار والعشاء، وغالباً ما كان يوفر كل ما يحصل عليه من أجل إخوانه.

في الساعة الثانية ظهراً يقوم راوي باصطحاب أخيه سامي إلى المنزل، وإيصال رشا وهناء كذلك.

يتناولون الغداء وحدهم في المنزل بينما يغادر راوي ثانية لمتابعة العمل.

في الساعة العاشرة مساء يعود راوي إلى المنزل ليتأكد أن رشا وهناء قد أنجزتا فروضهما، بينما ينام سامي مبكراً.

ثم يعاود الخروج، يتابع العمل إلى الساعة الواحدة ليلاً، عندها يتجه إلى حانة لبيع الخمور، هناك يقضي ساعتين في الشرب، ثم يعود إلى المنزل بطريقة أو بأخرى في ساعة لا يدري متى هي.

بدأ راوي عادته في الذهاب إلى هذا المتجر بعد وفاة والدته، ومغادرة والده البلاد دون أن يسمع أي خبر عنه، كان قد وضع أمام الأمر الواقع، عليه الاعتناء بثلاثة أطفال، بينما كان هو نفسه طفلاً.

كان يحاول التنسيق بين الدراسة والعمل، والاعتناء بإخوته، ولكنه كان غالباً ما يفشل في إحدى هذه الخيارات، وكان الخيار الذي قرر الاستغناء عنه بادئ الأمر هو الدراسة.

كان يغيب عن جميع الحصص المدرسية، حاول التركيز على الدراسة الذاتية التي استطاعت أن تسعفه لسنتين متتاليتين، ولكنه بدأ يفشل في المراحل التالية، وتدريجياً بات تعليم إخوته هو الهم الأول، أما بالنسبة لتعليمه هو فقد كان خياراً ثانوياً.

وفي إحدى الليالي، وحيث كان يعمل في منتصف الليل، قاده زميل له في العمل إلى حانة خمور، في بادئ الأمر لم يطلب راوي شراباً، ولكن سرعان ما عزم عليه زميله في المرات التالية إلى أن اعتاد هذه العادة بنفسه.

لم يكن راوي سعيداً بذلك، ولكنه كان ينسى همومه لحظات النشوة العارمة، رغم أنه على يقين أن شيئاً من مشاكله لن يحل بهذا الأسلوب، ولكنه كان دائم الرغبة في نسيان كل ما حوله.

وكانت الكتابة صديقه الدائم، وكان يفضل الخواطر منها، ولكنه لم يكن يسمح لأحد أن يقرأها على الإطلاق، حيث كان يكتب كل ما يجول في خاطره، وكأنه يتحدث إلى أحدهم حول حياته التعسة.

لم يكن يظهر أمام إخوته أي تذمر، وكان يفضل كتابته صريحاً

على الورق، كما كان أحرص على حفظه في مكان لا تصله الأيدي.

لم يكن أحد من إخوته يعلم بتردده على الشرب، وكان حريصاً ألا يعرف أحدهم ذلك، فقد كان يعلم أن في ذلك عاراً سيلازم إخوته إلى الأبد، ولكنه لم يكن ليقدر على التراجع.

وأخيراً ظهرت الجامعة لتفتح آفاقاً جديدة، وحصل على الشيك المفتوح جماعة، وعليه الآن أن يعمل معهم.

على الأقل سيضمن راتباً شهرياً من فريد، وسيعمل كذلك في الصباح، لربما تحسنت الأحوال شيئاً فشيئاً إلى أن يحصل على المال الوفير من العمل الفني الجماعي.

كل هذه كانت أحلاماً فحسب، عليه على الأقل أن يحرص على الحصول على الراتب الشهري من فريد، حيث لم يؤمن أبداً أن جماعتهم قد تتفاهم، أو قد تنتج ما هو جيد.

بسّام كان في عالم آخر، شادي كان مترفعاً عن الجميع، وفريد كان متملقاً، كلهم لا يمتون إليه بصلة.

وظهرت العرّافة، وقد كان أثرها سيئاً على راوي، حيث لّمحت بشدة أنه سيموت في متجر معين وهو على يقين أنها كانت تعني ما تقول.

ثم الرسالة من المطعم! ماذا يجري؟

وفوق هذا كله تطارده الكوابيس إلى قبر والدتـه، وقـد كـان هـذا أسوأ ما يمكن أن يحدث.

ماذا عليه أن يفعل الآن؟ هل يلازم المنزل؟ عليه أن يعمـل مهمـا كلف الثمن.

خرج راوي إلى عمله مجبراً، وقد كان يتلفت هنا وهنـاك خـشية أن يكون مراقباً من قبل العرّافة.

مضى اليـوم في العمـل دون أي تركيـز، ولم يكـسب راوي نقـوداً كافية من العمل، فلم يرض صـاحب العمـل عـن مـستوى الإنتـاج لهـذا اليوم.

أعاد إخوته إلى المنزل، ثم عاود الخروج، هذه المرة اتجه مباشرة إلى حانة الخمور.

طلب كأساً وجلس ينظر من النافذة إلى السماء، لقد كانت غائمة، ولكنـه لمـح شـيئاً غريبـاً، إنـه سـامي! يـسير فـوق إحـدى العمـارات المرتفعة! إنه يسير على الحافة!

نهض راوي قلقاً، ولكنه رأى أسوأ ما تخيل، لقـد انزلقـت قـدم سامي وسقط من أعلى العمارة!

هرع راوي تاركاً الحانة، وركض إلى حيـث العمـارة، وبحـث في الأرجاء عن سامي، بحث حيث توقع أنـه قـد سـقط، ثـم تـسلق سـلالم

العمارة ليبحث عنه في السطح، ولكنه لم يجده هناك!

ماذا يفعل الآن؟ إن قلبه يخفق بشدة، هل كان يتوهم؟ هل عليه أن يبحث أكثر؟ هل كان أثر السكر فحسب؟

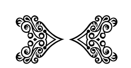
استغرق راوي وقتاً في التفكير، ولكنه قرر أخيراً أن يهرع إلى المنزل لينظر إذا ما كان هناك، فليس هناك أي تفسير لخروجه وقطعه تلك المسافة الطويلة لوحده.

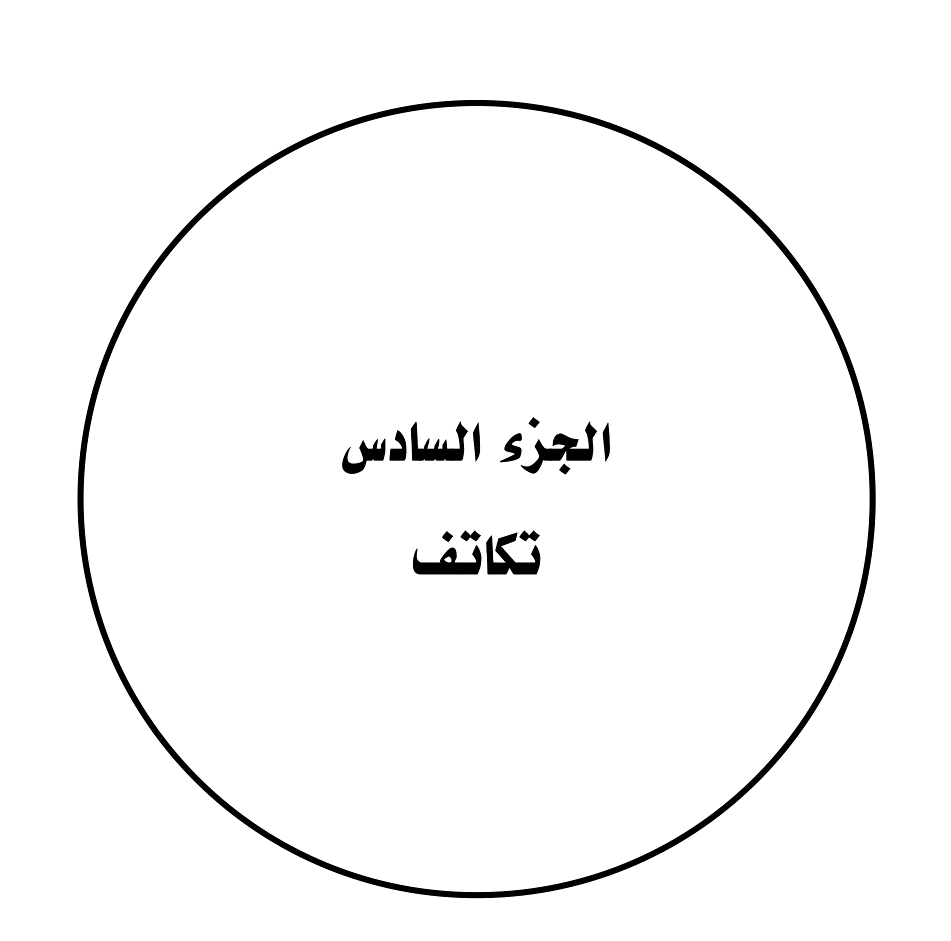
دخل راوي المنزل، وفتح باب غرفة النوم، فوجد إخوته الثلاثة راقدين بهدوء، وسامي كان بينهم.

اقترب منه ليطمئن قلبه، إنه ينام بسكون تام.

حمد الله والتف ليغلق الباب، عندها لاحظ سواراً من اللآلئ على يد سامي، لم يكن قد اشتراه له من قبل بكل تأكيد، ولم يكن على يده عندما غادر المدرسة، من أين له بهذا؟"

نظرت إلى أحفادي بعد آخر جملة، إنهم منصتون بكل تركيز، ثم نظرت إلى الساعة وقلت: "هكذا أنهينا الحديث عن يوميات أبطالنا الأربعة، وغداً بإذن الله سنتابع الحديث المشوق فيما بينهم".





الجزء السادس

تكاتف

الفصل الخامس والعشرون

اللقاء الثاني

مرت خمسة أيام على روايتي، وهذا هو اليوم السادس ، كم تمضي الأيام بسرعة.

رغم جلوسي المستمر أمام النافذة في هذا البرد القارس، رغم التفافي بلحاف خشن ليعطيني الدفء المناسب، ما زلت أشعر أن جسدي تفيض من داخله روح الشباب.

ربما كان ذلك مضحكاً، ولكن مراقبتي لأحفادي يذهبون ويعودون من مدارسهم تجعلني أشعر أن مدرستي كانت بالأمس، وأنني لربما استيقظت غداً، لأنهض من فراشي، وأرتدي ثيابي المدرسية، وحقيبتي، وحذائي، لأركض إلى المدرسة بنشاط.

قد لا يصدقون ذلك، بل قد يضحكون حتى من فكرة أنني التحقت بالمدرسة يوماً ما، وأنني شاركت بالعديد من النشاطات.

رسالتي إلى أحفادي أن يعيشوا كل يوم بيومه، فاليوم الذي يمضي لن يعود، فلا يدعوا للحسرة طريقاً إلى نفوسهم.

رسالة كهذه لن يكون لها أي وقع في قلوب شباب في مقتبل العمر من عجوز هرم، ولكنها اليوم لي كنز كنت أتمنى لو أهداني إياه

جدي في الصغر.

أخـيراً اقتربـت الـساعة المنتظـرة، وأنهـى أحفـادي دروسـهم بسرعة، وتجمعوا جميعهم حولي ليكملوا الحديث حـول مـا سـيجري للفائزين الأربعة.

قفزت حفيدتي الصغيرة وقالت: "ماذا عن إحـسان؟ كيـف كانـت حياته؟"

ابتسمت وقلت: "سيحين الحديث عـن إحـسان لاحقـاً، أمـا الآن فقد حان موعد اللقاء الثاني.

اجتمع الأربعة في الليلة التالية في مطعم مختلف، هذه المرة كان فريد آخر الواصلين حيث اضطر للسير على الأقدام، فقد أصـبح يخـشى قيادة السيارة.

كما وصل الثلاثة الآخرون بثياب لا تتناسب مع المطعم المختـار، فاضطروا للخروج من المطعم إلى مطعم آخر.

كانت هذه أهون المصائب، ولم يعلق أحـدهم علـى مـا جـرى ولم يعترض، كلهم ذهبوا إلى مطعم صغير بسيط بكل هدوء، جلـسوا فيـه، وطلبوا العصير.

لم ينطق أحدهم، حتى فريد كان صامتاً وكأن على رأسه الطير.

أخيراً سأل بسّام: هل لي أن أسأل سؤالاً ربما يكون فضولياً؟

قال فريد: ماذا؟

قال بسّام: ماذا كُتب لكم في الورقة التي أخذناها من المطعم السابق؟

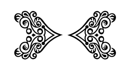
سكت الثلاثة، ثم نظر بعضهم إلى بعض، فسأل شادي: لماذا تسأل؟

عندها قال بسّام: انسوا الأمر، إنه فضول فحسب.

عندها قال راوي: لقد كُتب لي فيه شيء سيء.

سكت الثلاثة، وأخيراً تجرأ فريد وقال: (لم يكن ذلك وهماً).

ارتعد الثلاثة لسماع الجملة المشؤومة، وأخيراً اعتقدوا أنهم الأربعة في المشكلة نفسها".



الفصل السادس والعشرون

ماذا يجري ؟

قالت أصغر حفيداتي: "وأخيراً!"

ابتسمت وقلت: "لم يطل ذلك كثيراً"

قال آخر: "بل طال كثيراً، الآن يسهل التفاهم فيما بينهم"

قلت: "هل تظن ذلك؟"

قالت إحدى حفيداتي: "وهل هناك مشاكل أخرى؟"

عندها تابعت أقول: "لم ينته الحديث بعد، على كل حال بات الحديث أكثر انفتاحاً، وسرد كل منهم ما استطاع إظهاره للآخرين من أمر العرّافة، وعلى الأقل استطاعوا التأكد من أن أحدهم لم يكن واهماً فيما يجري له.

بدأ الأربعة يفكرون فيما يجري، ومن يفعل بهم ذلك، ولماذا؟

كان رأي فريد أنه شخص يريد الاستيلاء على الجائزة، لذلك يريد منهم أن ينسحبوا.

وكان رأي بسّام من رأي فريد، أما شادي فقد كان يظن أن ما يحدث لهم هو بسبب تعرضهم للعرافة في بادئ الأمر، وأن الأمر لا علاقة له بالجائزة.

أما راوي فقد ظن أن العرافة تريد بهم سوءاً مهما كان هدفها الحقيقي.

السؤال الأهم كان من هي تلك العرّافة، يبدو أنها شخص يعرفهم جيداً، أو على الأقل قامت بمراقبتهم بشكل دقيق.

قال بسّام أنه لم يلاحظ شخصاً بعينه فيما حدث له، فقد كان الناس مختلفين في كل مرة قابل فيه العرافة.

كذلك أكد الثلاثة أن ليست لديهم أي فكرة مَن تكون.

لم يستطيعوا التوصل إلى أي معلومة دقيقة، كل ما عرفوه أنهم معاً في المشكلة نفسها، ولكن ما العمل؟

عندها قدم صاحب المطعم بنفسه إلى طاولتهم، وانحنى ليهمس لهم ما لا يسمعه غيرهم: أرجو أن تغادروا حالاً.

تعجب الأربعة، فقال فريد: هل سببنا أية متاعب؟

فكرر صاحب المطعم طلبه وقد بدأ يتصبب عرقاً: أرجو منكم أن تغادروا فوراً، وسنعفيكم من الأجر كاملاً.

نظر الأربعة إلى بعضهم، فقال شادي: هل هناك خطب ما؟

فانفعل صاحب المطعم أخيراً وقال في حزم: سادتي، أرجوكم أن تغادروا فوراً.

عندها قال بسام للباقين: هيا بنا، هناك أمر مريب.

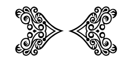
غادر الأربعة المطعم قلقين، لا يدرون ما جرى، ولكن راوياً عاتبهم قائلاً: كان علينا أن نضغط على صاحب المطعم لنعرف السبب، فهو يعرف شيئاً ما.

فرد عليه فريد: كان مستعداً لدفعنا بالقوة إلى الخارج على أن يتفوه بأية كلمة.

قال شادي: إنه مهدد بالقتل.

حدق الأربعة بشادي الذي قال: وهل هناك تصور آخر لديكم؟

صمت الأربعة، هل يعقل أن تكون الأمور قد وصلت إلى هذا الحد؟".



الفصل السابع والعشرون

إلى الجامعة

سأل أحد أحفادي: "ألا يظن الأربعة أن الجامعة المريبة كانت وراء شيء من هذا القبيل؟"

قلت: "لقد سبقتهم إلى ذلك بلحظات، فقد اقترح بسّام أن يعودوا إلى الجامعة حيث كانت العرّافة هناك بادئ الأمر، لربما كانت هناك قوائم بأسماء المشاركين في الاحتفال، بل ربما يكون هناك ملف خاص بطبيعة الأعمال المشاركة وصاحبها أيضاً.

ولكن الجامعة كانت قد أغلقت، ولم تفتح أبوابها منذ يوم التخرج، وعادت البناية المريبة الصامتة من جديد.

وقف الأربعة أمام البوابة يفكرون فيما يتوجب عليهم فعله الآن، فقال فريد: ربما تكون الجامعة وراء كل ذلك من البداية.

نظر الثلاثة إليه، فقال: ربما لا تريد لنا أن نحصل على الجائزة.

فقال شادي: لم يجبرهم أحد على هذا العرض السخي.

قال فريد: ربما، ولكنه عرض سخي جداً.

لم يستطع أحد منهم أن يصل إلى أية نتيجة، فقال بسّام: لنسأل المتاجر القريبة إذا ما كان أحدهم على صلة بأحد الأساتذة.

كان خياراً ضعيفاً، ومع ذلك تفرق الأربعة يسألون المتاجر واحداً تلو الآخر عن أي من الأساتذة، وكأنهم كانوا يتعلقون بأرفع الخيوط.

رغم كل الإشارات السلبية ظهر بريق واضح، فقد سأل راوي أحد المتاجر، فكان ابن صاحب المتجر يعرف منزل الأستاذ إحسان، فقد قام بإيصال طلب خاص إلى المنزل.

انتعش الأربعة بهذا الخبر، وحصلوا على العنوان وأسرعوا إليه أملاً في الحصول على أية معلومة، فإحسان كان من أفضل الأساتذة وأكثرهم تعاوناً، ولو كانوا يتمنون لقاء أحدهم لتمنوا لقاء إحسان من بين الأساتذة جميعاً.

وصلوا إلى المنزل الذي كان بسيطاً، ذا طابق واحد، وحديقة صغيرة، ولكنه جميل ونظيف.

دقوا الجرس، ففتحت لهم سيدة في أواخر العشرينات، تلف حجابها حول عنقها، وتحمل فتاة رضيعة جميلة بين ذراعيها.

قال بسّام: نأسف على الإزعاج، هل الأستاذ إحسان في المنزل؟

فأجابت: إنه في العمل الآن، من تكونون؟

فقال شادي: تلاميذه، نود لقاءه.

فنظرت إليهم وقالت: من الجامعة تلك، لقد أنهى العمل فيها، وليس يعمل في التدريس الآن.

فقال فريد: نريد مقابلته لأمر شخصي لا يتعلق بالموسيقى.

تعجبت من ذلك، ولكنها قالت: إنه يعمل في المطبوعات.

حصل الأربعة على العنوان، واتجهوا إلى الشركة التي يعمل فيها متعجبين من بُعد الصلة بين العمل والموسيقى!

لم يكن الحصول على إذن الدخول سهلاً، ولكن الأمر تيسر في نهاية الأمر، وأدخل شادي وحده للقاء إحسان الذي كان منهمكاً في الطباعة على الحاسوب.

تفاجأ إحسان برؤية شادي، ورحب به كثيراً، وأجلسه إلى جانبه، رغم أن شادياً كانت لديه قصة طويلة ليرويها، إلا أنه لم يستطع أن يؤجل سؤاله التالي: لماذا تعمل هنا؟

ابتسم إحسان وقال ببساطة: تعني لماذا لا أعمل بالموسيقى، ببساطة لأنني لا أتاجر بالفن.

لم يشأ شادي أن يناقش أكثر، فقد كان صاحب العمل مستاء لتعطل العمل لوجوده، فسأل إحسان شادياً عن سبب حضوره، فشرح له شادي ما حصل بينهم وبين العرّافة التي قابلوها في الجامعة.

تعجب إحسان من الحكاية، وشعر أنها ضرب من الخيال، فقال شادي: ربما لا تصدقني.

فقال إحسان: الأمر ليس كذلك، ربما لو كنت أسمع الحكاية من

شخص آخر لما صدقت، ولكنني أثق أنك صادق. ولكن ما علاقتي بالموضوع؟

قال شادي: نريد أن نعرف من تكون تلك العرّافة، هل هناك من أسماء للمشاركين في حفل التخريج؟

أجاب إحسان: كان حفلاً حراً، كل الناس حضروا.

أكّد شادي: ألم تكن هناك أسماء بالمشاركين في جامعة منظمة؟

ابتسم إحسان وقال: الجامعة منظمة، ولكن الحفل كان يفترض به أن يكون عاماً للجميع، لقد شارك فيه كل الناس، من داخل الجامعة وخارجها.

قال شادي: ألا توجد أية وسيلة لنحصل على أي خيط نبدأ فيه البحث عنها؟ نقابل رئيس الجامعة مثلاً.

قال إحسان: رئيس الجامعة نفسه لن يجيبكم على هذا السؤال، ثم إنني لا أعرف رئيس الجامعة!

تذكر شادي الطابع الغامض للجامعة، ومع ذلك فقد تعجب أن أساتذتها لا يعرفون الرئيس! فسأل: على الأقل دلني على أي أستاذ آخر، لست أجد أية وسيلة أخرى سوى السؤال.

ضحك إحسان، وكأن شادي لم يفهم بعد ما يقول: أنا لا أعرف أحداً من الأساتذة أيضاً.

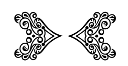
كانت الدهشة واضحة على وجه شادي، فأوضح إحسان قائلاً: جميعنا تعرف على الآخر في الجامعة، ولا تنس أننا نختار أسماء مستعارة، ومن المصادفة فقط أنني اخترت اسمي المستعار هو ذاته اسمي الحقيقي، وإلا لم تكن لتعثر علي مهما فعلت.

فسأل شادي مباشرة: ولماذا كل هذا الحرص على إخفاء هوياتكم؟

فقال إحسان: هوياتنا وهوياتكم أيضاً، فهل اسمك الحقيقي هو شادي؟

طأطأ شادي يفكر قليلاً ثم قال: نعم، إنه اسمي الحقيقي، أنا أيضاً رفضت فكرة الاسم المستعار، أحب أن أنادى باسمي.

ابتسم إحسان وقال: هذا أمر يجمعنا، يبدو أننا نفهم بعضنا، وربما كان هذا سراً في اختيار المدرسين والفائزين".



الفصل الثامن والعشرون

تحقيق

هتفت أصغر حفيداتي: "يالله! إحسان"

قال أحد الأحفاد: "لم يسعفهم إحسان على الإطلاق"

فقال آخر: "ماذا يعني أنه لا يتاجر بالفن؟ يستطيع أن يكون مشهوراً وغنياً"

فقلت: "رغم هذه الإجابة المختصرة إلا أن شادياً كان قد فهم كل ما يرمي إحسان إليه.

خرج شادي إلى زملائه الثلاثة، وأخبرهم عن مدى سرية الجامعة، وأن أحداً منهم لا يدري شيئاً عن الآخر، وأنه لا توجد أسماء للمشاركين في حفل مفتوح.

فسأل فريد من فوره عن السبب الذي يجعل الأستاذ إحسان يعمل عملاً لا علاقة له بالموسيقى، فأجاب شادي الإجابة البسيطة: إنه لا يتاجر بفنه.

سكت الثلاثة، ولكن شادياً كان الآن مقتنعاً بما سمع، فقال: لقد قام بتعليم الفن، ولكنه لا يتاجر به، إنه يحب الفن لذات الفن، ويظن أن النقود تفسد الفن.

فقال راوي: ما فائدة الفن الذي لا يدر عليك نقوداً؟

أجاب شادي: ربما كان شيئاً يصعب عليك فهمه، ولكنني أفهم إحسان جيداً.

فقال فريد قلقاً: ولكنك ما زلت تعمل معنا.

قال شادي: نعم، إلى أن أصل إلى نهاية هذا المطاف.

قال بسّام: وماذا عن العرّافة؟

نظر الثلاثة إلى شادي الذي قال: لا علم له بالأمر.

رغم أنهم قد وصلوا إلى إحسان، إلا أنهم لم يتوصلوا إلى شيء عن العرّافة، ولا حتى عن أي مدرس آخر في الجامعة.

ما العمل الآن؟ أخيراً اقترح فريد عليهم أن يبتعدوا عن المطبعة، وأن يختاروا مكاناً يجلسون فيه ليتحدثوا.

وكالعادة اختار لهم فريد مطعماً، ولكنه هذه المرة مطعم بسيط، يدخله عامة الناس، وليس فيه ما يميزه عن أي مطعم صغير في المدينة.

كان المطعم يحوي أقل من عشر طاولات، وشاشة تلفاز تعرض مباراة لكرة القدم، ويأكل فيه ما يقارب العشرة أشخاص.

جلس الأربعة على طاولة، وطلبوا الطعام، وتابعوا الحديث، فسأل بسّام: هل سنناقش أمر العرّافة أم أمر المشروع؟

فقال راوي: علينا أن نتم العمل حتى نحصل على المكافأة.

فقال شادي: وهل أنتم قادرون على العمل في هذه الظروف؟

قال راوي: يبدو أن أحدهم يريد أن يقف في طريق نجاحنا، وعلينا ألا نترك له المجال لذلك.

قال فريد: أنا أؤيد هذا الرأي أيضاً، فنحن لم نتوصل إلى ما يقودنا للعرّافة، وليس هناك ما نناقشه سوى المشروع.

فقال بسّام: إذن على الأقل علينا أن نفكر في موضوع المشروع.

عندها لمعت الأضواء ثم انطفأت وعاودت الإنارة، نظر الأربعة حولهم، لم يحصل شيء غير طبيعي، فنظروا إلى شاشة التلفاز التي كانت قد تغيرت من مباراة كرة القدم إلى خيمة العرّافة التي يعرفونها تماماً، وكانت العرّافة جالسة تنظر في الكرة الزجاجية.

نهض الأربعة فزعين مما يشاهدون، وكان التصوير يقترب من العرّافة شيئاً فشيئاً، إلى أن أشارت العرّافة إليهم، فأحس فريد بشيء يسير على قدمه، فنظر إليها فإذا بجماعة من الجرذان تخرج من أسفل الطاولة.

فزع الأربعة بخروج الجرذان، التي انتشرت في المطعم.

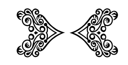
رغم أن عددها كان كبيراً، ورغم أنها تسلقت جميع الطاولات أمام الناس، إلا أن أحدهم لم يلحظها، وكانوا يتناولون الطعام وكأن شيئاً لم يحصل.

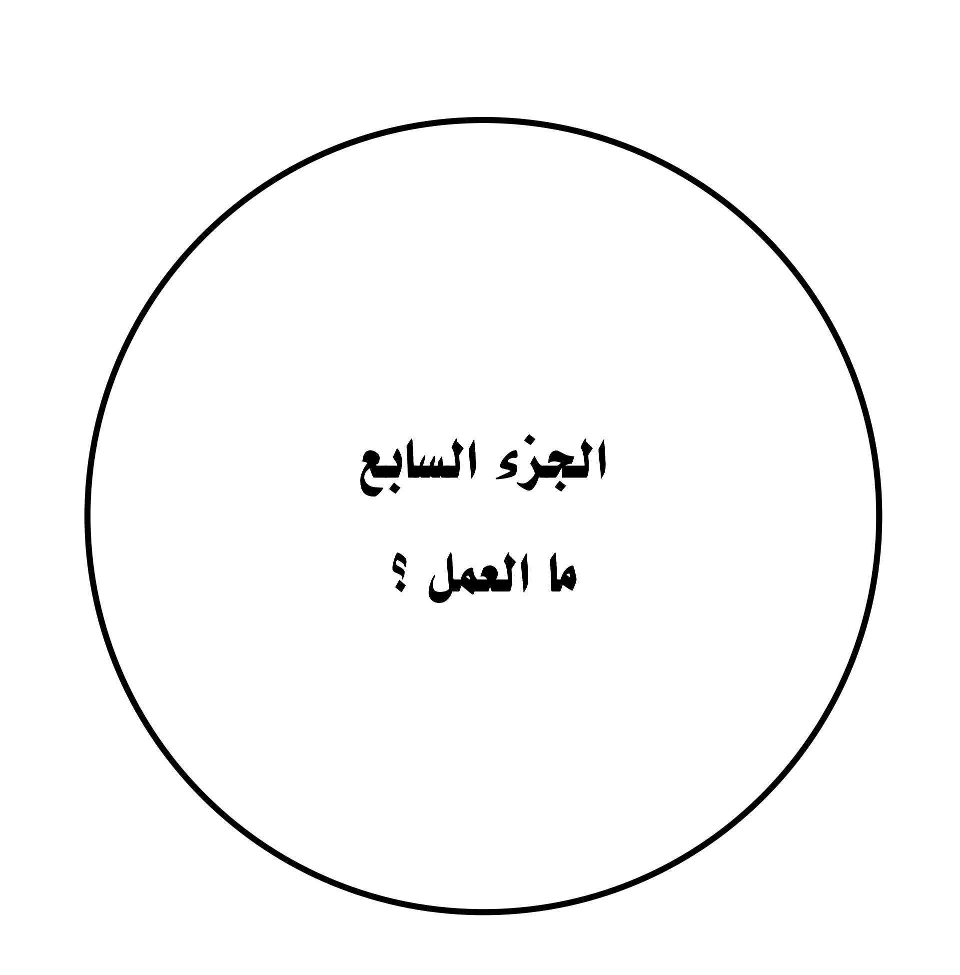
كان الأربعة وحدهم من يشاهد الجرذان، خرجوا من المطعم مسرعين، فلحقهم صاحب المطعم يقول: الحساب يا سادة! الحساب!

فعاد فريد مسرعاً، وفتح محفظته بيد ترجف، وسحب منها نقوداً لا يدري كم كانت قيمتها، ووضعها في يد صاحب المطعم وركض مغادراً".

استاء أحفادي متخيلين المنظر، كيف تتسلق الجرذان الطاولات، وتسير على الطعام!

ابتسمت قائلاً: "والآن يكفي هذا القدر اليوم، سنتابع حديثنا في الغد".





الجزء السابع

ما العمل ؟

الفصل التاسع والعشرون

قلق

نمت ليلة هادئة، واستيقظت في الفجر على صوت الأذان، بات النهوض والوضوء أمراً مرهقاً، ليتني كنت أنهض بسرعة أكبر عندما كنت شاباً.

هل هذه أمنية لعودة الشباب، هذا الحلم الذي راود الجميع منذ الأزل؟ أم أنه ندم على تلك الأيام؟

هل كنت مقصراً؟ هل كنت لأفعل أكثر مما فعلت لو عدت الآن شاباً؟

لربما كنت سأهوي أكثر، لربما كانت الشيخوخة مرحلة نرحم فيها أنفسنا من التجبر ونسيان القدر المحتوم.

لم يكن عبثاً، الطفولة ثم الشباب، وحتى الشيخوخة، لم تكن أي مرحلة قد رُسمت عبثاً، جميعنا يسير الطريق نفسه، هذا عدل مطلق، ولكن الظلم هو من عند أنفسنا.

نظرت إلى أحفادي المتفاوتين في العمر، كل منهم ينهض متثاقلاً إلى المدرسة، بل إن آباءهم يحثونهم على الصلاة قبل أن يخرجوا، تمنيت أن أرى أحدهم يصلي بنشاط وحبور.

لماذا لا ينظرون إلي؟ لماذا لا يشعرون بي؟ لماذا لا يعتبرون قبل فوات الأوان؟

لماذا أعاتبهم؟ ألم يكن لي جد أيضاً؟ ألم أكن مثلهم تماماً؟

إنه ليس العتب، إنه الحب، أحب أن يعرفوا ما لم أعرف، أن يفعلوا ما لم أفعل، أن يكونوا أفضل مني.

عدت أخيراً إلى جلستي المعهودة، وانقضى الوقت في التفكير والتأمل، إلى أن حانت الساعة المسائية المعتادة، وتجمع أحفادي حولي، متلهفين للمتابعة.

قال أحدهم: "لا جرذان اليوم رجاءً"

فقالت أخرى: "أجل، عِدنا بذلك"

ضحكتُ وقلت: "أعدكم، ولكن الأربعة الآن باتوا على يقين أنهم لن يستطيعوا متابعة العمل على هذا النحو، عليهم أولاً أن يحلوا مشكلة العرّافة"

أشار الأحفاد بالإيجاب، فتابعت الحكاية: "هكذا جلس الأربعة في وقت متأخر على رمال الشاطئ، يلتقطون أنفاسهم، ويناقشون أنهم كانوا الوحيدين الذين استطاعوا مشاهدة كل ما حدث، أما الآخرون وكأن شيئاً لم يكن.

قال فريد: أظن أن بداية الخيط ستكون من تنبؤ العرّافة لكل منا.

سكت الجميع، فقد كانت ملاحظة فريد جريئة، فكلهم يعرفون أن لظهور العرّافة علاقة وثيقة بما تنبأته لهم من مستقبل.

قال راوي: لقد تنبأت لك بحادث سيارة، ولبسّام بسكتة قلبية، ولشادي بوفاة في حفل الزفاف.

فقال بسّام: ولك موت في السوق.

قال شادي: إنها تعرف كل شيء عنا.

قال فريد: بل تعرف مستقبلنا فوق كل ذلك.

قال راوي: وتلاحقنا لتجعل حياتنا جحيماً. ما الغاية من وراء ذلك؟

سكت الأربعة، ما عساهم أن يفعلوا؟ عندها قال فريد: ما زلت أظن أن للجامعة علاقة بالأمر.

قال شادي: لن تستطيع أن تحصل على أي معلومات عنها.

قال بسّام: لربما إذا ما كان باستطاعتنا العثور على عدد أكبر من المدرسين لاستطعنا الحصول على بعض المعلومات.

قال شادي: أشك في ذلك، ومع ذلك فإننا لا نملك أي خيط لأي أستاذ غير إحسان.

أيضاً سكت الأربعة، عندها نظر راوي إلى الساعة حيث بات الوقت متأخراً، فقال: عليّ المغادرة الآن، فالوقت بات متأخراً، وعليّ

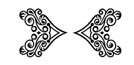
الاستيقاظ في الصباح الباكر.

نظر إليه الثلاثة الآخرون يظنون أن في ذهابه وحيداً جرأة كبيرة، ولكنه كان مضطراً لذلك، فقال: وهل تظنون أننا سنعيش معاً في غرفة واحدة؟ إن لديّ ما أفعله.

قال بسّام: ما تقوله صحيح، ولكن...

قال راوي: لا وقت لديّ للخوف، عليّ أن أمضي دوماً.

غادر راوي متحدياً كل المخاوف مما سيحصل، كما افترق الثلاثة أيضاً كل في طريق، وكل منهم يتلفت خشية حصول أي مكروه، حتى إن وصولهم إلى المنزل لم يكن آمناً بما فيه الكفاية".



الفصل الثلاثون

ثانية

قال أحفادي معاً: "هل وصلوا إلى المنزل؟"

ضحكت وقلت: "وصلوا"

سكت أحفادي وكأن خيبة أمل قد أصابتهم، ولكنني قلت: "ولكن الأحداث لن تنتهي هنا"

فقالوا: "وماذا بعد؟"

قلت: "صحيح أن الأربعة ساروا بحذر شديد في الليل، ووصل كل منهم إلى منزله دون أحداث مريبة، إلا أنهم لم يستطيعوا النوم، وكل منهم يفكر فيما يجري، وما سيجري له في الأيام القادمة.

كما أن راوياً اطمأن على أخيه سامي فور دخوله المنزل، وشادي اتصل بقمر طوال الطريق ليكون على صلة بأحدهم، وفريد تحلق حول سيارته وفتح كل شبر فيها ليطمئن عليها، وبسّام... تناول عشاء دسماً ونام.

في اليوم التالي خرج شادي إلى عمارة والد قمر، لعله يستطيع أن يتقرّب إليه أكثر، ويمول له حفلاً جميلاً يشهره فيه أمام جمهور لائق لفنه العريق.

صعد إلى الطابق الرابع، ووقف ينتظر الإذن بالدخول.

نظر من خلال النافذة إلى السيارات الواقفة في المصفات، إنها جميلة وبرّاقة، ليته يملك واحدة منها، إن قمراً لها سيارتها الخاصة بينما هو يستخدم المواصلات دوماً.

أثناء تأمله لاحظ شخصاً في إحدى السيارات، إنها هي، إنها العرّافة دون شك!

ارتبك شادي كثيراً، هل حضرت من أجله؟ هل تنوي أن تؤذيه؟ هل تنوي أن تؤذي قمراً أو والدها؟

فكر قليلاً، إنه بعيد عنها، لربما لا تعرف بوجوده، إنها في السيارة لم تغادرها بعد، هل يعقل أنها غافلة عنه تماماً؟

فكر ماذا يفعل؟ إنها فرصة جيدة ليعرف هويتها، ولكنه بعيد، ولا يستطيع أن يخاطر بالنزول إلى المصفات، لربما غادرت أثناء ذلك!

أخيراً خطر له أن يتصل بأحدهم ليحضر بينما يراقبها عن كثب حتى لا تغادر، فاتصل ببسّام، الذي كان ما يزال نائماً في المنزل، أخبره شادي أن العرّافة أمامه، وعليه أن يسرع بالحضور لكي يمسكا بها.

نهض بسّام فزعاً، وارتدى ثيابه بسرعة، وخرج إلى حيث

وصف له شادي، ووصل المصفات خلال ربع ساعة، كان شادي فيها ما يزال محدقاً بالعرّافة داخل السيارة، لم تتزحزح عيناه عنها، بل إن موعده مع والد قمر قد حان، ولكنه اعتذر عنه وظل واقفاً.

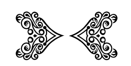
دخل بسّام المصفات بحذر شديد، سار ببطء والهاتف على أذنه يستمع إلى إرشادات شادي الذي كان ما يزال يرقب المكان من أعلى.

اقترب بسّام من السيارة أكثر فأكثر، والتف حولها من الخلف إلى الأمام ببطء شديد، ونظر إلى مقعد السائق حيث يفترض أن تكون جالسة، ولكنه لاحظ أنه لا يوجد أحد على المقعد!

التف بسّام إلى الأمام أكثر، ليرى أخيراً قناع العرّافة معلقاً على المقعد، ولا يوجد شخص هناك.

أخبر بسّام شادياً بما رأى، فلم يصدق شادي، ونزل بسرعة إلى حيث بسّام ليتأكد من ذلك بعينه.

إنه على حق، هناك قناع في السيارة ليس إلا، ولكن من وضع القناع هكذا؟ لابد أنه شخص متعاون مع العرّافة".



الفصل الحادي والثلاثون

حادث

سأل الأحفاد: "هل عرفوا صاحب السيارة؟"

أجبت: "انتظروا طويلاً دون جدوى، ولما غادروا اختفت السيارة في اليوم التالي"

قال أحدهم: "إنها تراقبهم جيداً"

قلت: "بكل تأكيد، أما فريد فقد تفحص سيارته جيداً في الصباح، ولم يكن فيها أي خطب يذكر.

ركبها وخرج بها متجهاً إلى فندق فاخر ليقضي هناك يومه.

كان الفندق في أعلى الجبل، وكان عليه أن يقود سيارته على طريق يتسلق الجبل.

لم يكن الطريق ضيقاً، ولكنه كان محاطاً بحواجز لتنبه السائقين على الوادي المحيط بهم.

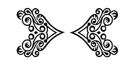
كان فريد يسير ببطء، كان حذراً من الوادي بشكل طبيعي ومن العرّافة بشكل غير طبيعي، فهو يتوقع حدوث أي شيء، رغم ذلك حدث ما لم يكن في الحسبان.

كان يسير بسرعة بطيئة كما كانت السيارة أمامه تسير بسرعة

مماثلة، ولكنها لسبب يجهله لم تنعطف بشكل سليم، وارتطمت بالحاجز، بل اخترقته نازلة الوادي أمام عينه.

أوقف فريد سيارته هلعاً، ونظر في الوادي، فكانت السيارة محطمة في الأسفل.

ترك فريد سيارته مكانها، ونزل الوادي سيراً على الأقدام، حذراً كل الحذر من أية سيارة".



الفصل الثاني والثلاثون

في العمل

قال أحفادي: "لا أظن فريداً سيركب سيارة بعد الآن"

ابتسمت وقلت: "ربما"

قالت أصغر حفيداتي: "وماذا عن راوي؟"

تابعت أقول: "أما راوي فقد ذهب إلى العمل في الصباح الباكر، ودخل عمارة كبيرة كان يحضّر فيها الشاي للموظفين.

صعد راوي المصعد إلى الطابق الخامس، وقد كان وحيداً، توقف المصعد دون أن يفتح الباب، ضغط راوي على زر الفتح، ولكن الباب لم يفتح، وانقطعت الكهرباء عن المصعد.

ظل راوي هادئاً يرقب ما سيحصل، حيث كان يتوقع أن تكون العرّافة وراء ذلك، ولكن ثوان معدودة قد مرت، وعادت الأضواء، وفتح باب المصعد.

نظر راوي إلى الممر أمامه، لقد مر كل شيء بسلام! وليس هناك أحد في الممر.

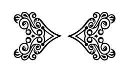
خطا خطوة خارج المصعد، فسمع صوت ماء قد انسكب على أرضيته، نظر راوي خلفه، فإذا بخمر قد سكب على أرضية المصعد.

ما إن رفع راوي نظره إلى سطح المصعد ليرى من أين أتى هذا الشراب، حتى نزلت دمية مخيفة الشكل، متوسطة الحجم، ذات عين واحدة، وشعر متسخ، معلقة بخيوط على السقف، ومدت يدها إلى وجه راوي الذي تراجع بسرعة، وأغلق باب المصعد على يد الدمية، ومزقه أمامه".

قام أحفادي بشبك أيديهم معاً خوفاً، فقلت لهم: "هذا ما حصل مع الأربعة هذا اليوم، وفي الغد سنتابع ما جرى معهم"

قالت أصغر حفيداتي: "الدمى ليست بشعة"

ابتسمت وقلت: "إنها دمى مختلفة عما تلعبين به، لا تقلقي، والآن عليكم بالنوم، فغداً مدرسة".




الجزء الثامن
تصعيد

الفصل الثالث والثلاثون

في كل مكان

يوم تلو يوم، ساعة بعد ساعة، كم يمضي الوقت بسرعة!

أحاول تخيل أحفادي في سن الثمانين، كيف سيصبحون؟ على أي حال ستغيرهم الأيام؟ الوجه، الجسد، الصحة؟

حاولت التحديق بحفيدتي الصغيرة وهي تحاول ارتداء ثيابها بنفسها بصعوبة، عملية ربط الحذاء تبدو مستحيلة، كما باتت مستحيلة بالنسبة لي.

ساعة، اثنتان من التحديق المستمر، لا فائدة، إنها صغيرة وستبقى هكذا مدى الحياة في نظري.

لم أستطع حتى تخيلها في سن الشباب، لا يمكن أن أتخيلها في الكهولة، هذا ضرب من المستحيل.

إذن هكذا هم، لا يستطيعون تخيل شيء كهذا، كما لا يستطيعون العودة بي إلى أيام الصبا.

على الأقل صباي كان واقعاً، ولكن كهولتهم هي من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله وحده جل وعلا، فلماذا أُنهك نفسي في قضاء الله؟

استرخيت على الأريكة أسلم أمرهم إلى خالقهم، فهو وحده

العطوف عليهم.

فتحت عيني فإذا بي قد غفوت إلى الليل، وقد أيقظني أحفادي لأتابع لهم الحكاية.

قال أحدهم: "هل سيجتمعون ثانية؟"

قالت أخرى: "هل سيختارون مطعماً من جديد؟"

قلت: "اجتماعهم في الموعد المحدد، أما المكان فقد اختاره فريد كالعادة، هذه المرة في فندق فاخر.

اجتمع الأربعة كل منهم يرجف مما يمكن أن يجري لهم اليوم، الأحداث الغريبة تجري إذا ما كانوا فرادى أو جماعة.

جلسوا في مقهى الفندق، وقص كل منهم ما جرى له، وقرروا أن عليهم أن يجدوا حلاً للمشكلة.

اقترح بسّام أن يخبروا الشرطة، ولكن الثلاثة رفضوا هذا الخيار، معللين أن الشرطة لن تأبه بأحداث كهذه، كما أن أحدهم لم يصب بمكروه.

قال راوي: علينا أن نعرف هويتها.

ما إن نطق هذه الكلمة حتى ظهرت أمامهم العرّافة على طاولة المطعم.

قفز الأربعة من هول ما رأوا، إنها هنا! عندها تشجع فريد،

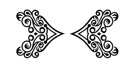
وقفز عليها، وأمسكها بشدة، واستغل الفرصة السانحة لينزع القناع عنها.

نزع فريد القناع، فإذا به شاب في العشرين من العمر، ركض إليه موظفو المقهى لينقذوه من بين يدي فريد، حيث كان صديقهم الموظف في المطعم أيضاً.

سأل شادي الموظفين: ماذا يعني هذا؟

أجابوا أنهم لم يعرفوا أن الأمر سيكون مفزعاً هكذا، فقد شاعت هذه الأقنعة في السوق، وبات الجميع يرتديها ويلعبون بها.

قدموا اعتذارات كثيرة، ولكن الأربعة نظروا إلى بعضهم، ثم إلى متجر صغير في الفندق، هناك العديد من الأقنعة معلقة، إنها كلها أقنعة العرّافة!



الفصل الرابع والثلاثون

المهمة المستحيلة

قال أحد أحفادي: "لقد بات الأمر صعباً جداً عليهم"

قالت أخرى: "لن يميزوا بين العرّافة الحقيقية وغيرها"

قلت: "هذا أكيد، لذلك كان عليهم أن يفكروا بجدية أكبر من أي وقت مضى.

عاود الأربعة الجلوس، يحاولون التظاهر بالهدوء، ولكنهم كانوا يفكرون في نفس الموضوع، إذا ما خرجوا الآن إلى الشارع لربما صادفوا العشرات من العرّافات، إحداهنَّ فقط هي الحقيقية!

هل يستطيعون النوم الآن؟ هل يستطيعون التفكير في حل؟ هل هناك حل؟

قال فريد: علينا أن نركز، تذكروا جيداً أن العرّافة الحقيقية هي واحدة فقط، وأن كل ما حولنا الآن هو وهم ليس عليه أن يؤثر فينا.

قال بسّام: لن يؤثر فينا! كيف تقول هذا؟ لن أستطيع السير في الشوارع من الآن فصاعداً.

قال راوي: هذا صحيح، علينا أن نحل المشكلة الآن وحالاً.

قال شادي: وهل لديك فكرة ما؟ الآن وحالاً!

قال بسّام: نقتحم الجامعة، ونعلن تنازلنا عن الشيك والمشروع.

صرخ راوي: أبداً، لن يحصل هذا.

قال فريد: هذا ما تريده العرّافة بالضبط، ولن يكون لها هذا.

قال شادي: إذا ما كان هذا سيحل المشكلة فأنا أتنازل.

قال راوي: وكيف لك أن تتزوج قمراً؟

أشار فريد بيديه يقول: كفى كفى! كفوا عن هذا الجدال، لن يفيدنا هذا في شيء على الإطلاق.

سكت الأربعة والدم يغلي في رؤوسهم، ماذا سيفعلون الآن؟

قال بسّام في قلق: في مثل هذه اللحظات كانت تظهر العرّافة لنا.

نظر فريد حوله وقال: هناك ثلاثة أقنعة في الصالة على الأقل، هل تظن أن إحداهن حقيقية؟

تأخر الوقت، وظل الأربعة جالسين في قلق، يتلفتون في الصالة، ويراقبون أصحاب الأقنعة، كلهم من الموظفين، وقليل هم من دخل بالقناع من الزوار.

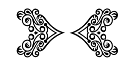
لم يحصل ما هو غريب، وتناول الأربعة طعامهم بحذر شديد، وخرجوا إلى الشارع ليروا العشرات من الأقنعة تسير هنا وهناك!

بل كان الأطفال يتحلقون حولهم في سرور، لم يعرف الأربعة ما الممتع في قناع مخيف كهذا، هذا جيل غريب.

عندها ركض الأطفال منتشرين في الساحات، ولكن الأربعة لاحظوا أن الأطفال يرمقونهم بعيون غريبة! حتى الأطفال باتوا غريبين.

لم يحتمل راوي هذه النظرات، فأمسك بطفل يسأله: هل هناك خطب فينا؟

فقال الطفل: العرّافة قالت اليوم أن الرقم أربعة ليس رقماً محظوظاً".



الفصل الخامس والثلاثون

شكوك

قال الأحفاد: "لقد بات الأمر معقداً"

قالت أصغر حفيداتي: "مَن العرّافة الحقيقية؟"

فنظر إليها باقي الأحفاد يقولون: "هذا ما لا نعرفه من الحكاية إلى الآن"

فقالت: "ومتى سنعرف؟"

قلت: "ستعرفين عندما يحل الأربعة معضلتهم" ثم تابعت الحكاية أقول: "هذه المرة لم يفترق الأربعة، فلم يجرؤ أحدهم على الذهاب إلى منزله وحيداً.

قرروا على الأقل أن يسيروا معاً إلى أقرب مفترق لمنازلهم، وأن يظلوا على شكل جماعة قدر المستطاع.

ساروا في الطريق المظلمة يتحدثون، فأطرق فريد يفكر ثم قال: أنتم تعلمون أن العرّافة لا تستهدف الجائزة.

نظر راوي إليه وقال: فما هدفها إذن؟

سكت فريد قليلاً، فقال بسّام: أنت تقصد التنبؤ الذي تحدثت عنه في السابق.

أشار فريد بالإيجاب، فقال شادي: لا يمكن لأحد أن يتنبأ بذلك.

ولكن فريداً قال: لقد بت أخشى سيارتي.

سكت الثلاثة، فقد تذكر كل منهم مشكلته، ولكن شادياً قال: لا تظن أنني أصدق أنني سأموت في حفل زفافي، ربما تموت في حادث سيارة، أما حفل الزفاف!

قال فريد: لست أدري.

ضحك شادي وقال: لا أصدق أنك بت تصدق ما تنبأت به، لقد سألناها التنبؤ للمتعة.

سكت الجميع سكوت الندم على تلك اللحظة، فقال شادي: أما أنا فلا أظن أن لتنبؤها ذاك علاقة بالأمر، إنها تريد الجائزة.

وصل الأربعة إلى أول مفترق، كان على شادي المسير لوحده الآن، ودع الثلاثة وسار بخطى ثابتة إلى المنزل.

أثناء مسيره التقى بشخص يسير مع زوجته التي تحمل ابنتها الرضيعة، إنه الأستاذ إحسان.

رأى إحسان شادياً، فتوقف ورحب به.

كان شادي سعيداً بلقاء من يعرف في الطريق، حيث كان الطريق موحشاً ومخيفاً.

كان منزل إحسان قريباً، فتابعت زوجته المسير، بينما تحدث إحسان وشادي عن آخر الأحداث.

لم يبخل شادي على إحسان بأي معلومة، فقد سرد له كل الأحداث، ففكر إحسان بهدوء.

قال إحسان: من يفعل ذلك هو شخص يعرفكم جيداً.

قال شادي: بكل تأكيد.

قال إحسان: من أين له بكل تلك المعلومات؟

قال شادي: لا أدري، ربما من الجامعة.

أشار إحسان بالنفي وقال: ربما تعرف الجامعة الكثير عنكم، ولكن معلوماتها سرية للغاية، لا يمكن لأحد الاطلاع عليها.

قال شادي: فمن أين لها بالمعلومات؟

قال إحسان: هل قلت أن فريداً هو من ينتقي مكان الاجتماع في كل مرة؟

جفل شادي، في كل حادثة جرت معهم كان فريد هو من يختار مكان الاجتماع، هل يعقل أنه متواطئ مع العرّافة؟ هل يريد أن يثنيهم عن الجائزة؟

ولكن إحساناً قال: وقد قلت أن بسّاماً كان هو صاحب فكرة التخلي عن الجائزة، أليس كذلك؟.

فكر شادي ثانية، هذا صحيح، هل يعقل أن بسّاماً هو من يريد الجائزة لنفسه؟

ثم قال إحسان: وحسب ما أخبرتني، فإن راوياً يعرف عن قمر، إذن فهو يعرف عنك أكثر مما كنت تتصور.

شعر شادي بالأمور تتعقد أكثر فأكثر، فراوي هو أكبر المحتاجين للجائزة.

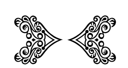
قال شادي: ولكن الجائزة مفتوحة، ولن يضر أحد أن نحصل عليها أربعتنا.

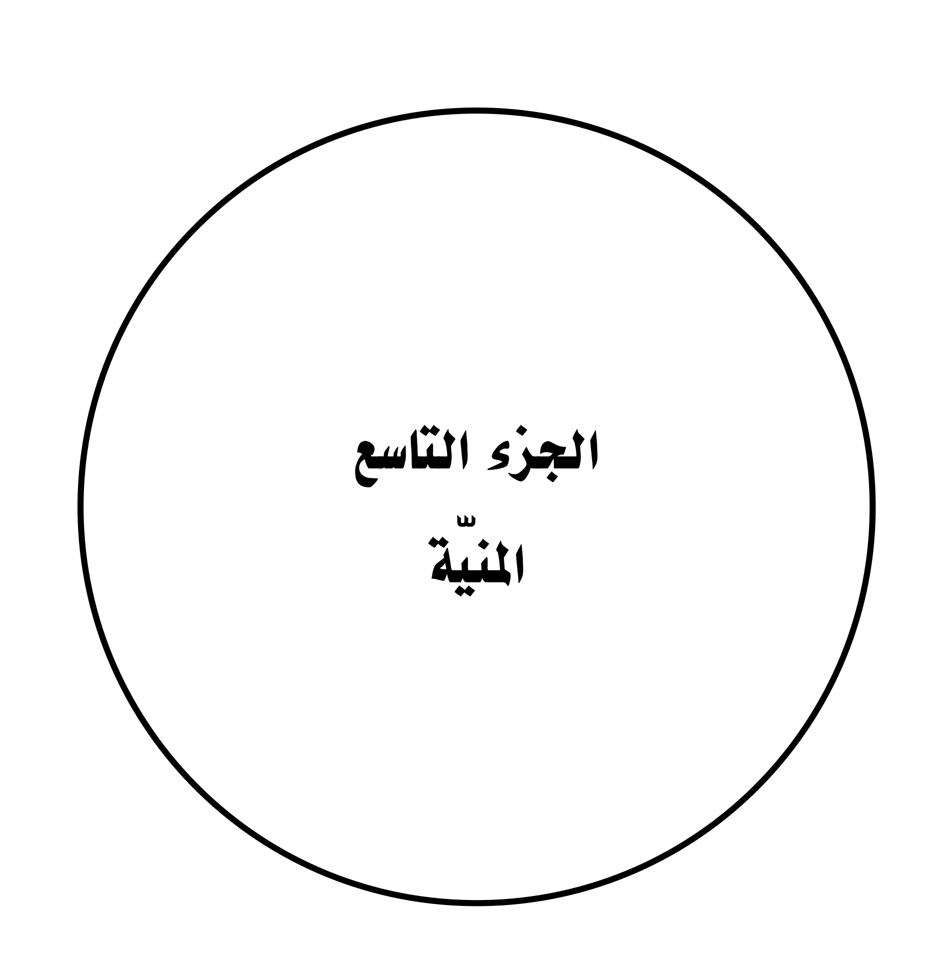
قال إحسان: هذا تفكير سليم، ولكن هل الطمع تفكير سليم؟"

اندهش أحفادي، فقد بات الأمر معقداً.

قال أحدهم: "لم يخطر ببالي أن أحد الأربعة وراء ذلك"

قلت: "للحديث بقيّة، ولكن الوقت قد تأخر اليوم، سنتابع ما حصل للأربعة كل على حده في اللقاء القادم إن شاء الله".





الجزء التاسع

المنيّة

الفصل السادس والثلاثون

بسّام

المنيّة، زارت العديدين وهجرتني، صافحت المساكين وخاصمتني، هاجمت العزّل وأمّنتني.

ثمانون عاماً كان غيابها، ولم تترك ما يدل على طلّتها.

هي السيدة، هي الآمرة، ليس فوقها إلا سيد العالمين.

هل في خاطرتي هذه ما يخيف؟

ربما، ولكن الشباب لا يخشونها كما أخشاها، وكأنها مختلفة الطلة!

هذا الاندفاع الذي ذابت به السنين، ألا أستطيع أن أستعيده، وأن أقف بشجاعة أمامها؟

ماذا أخشى؟ ماذا أفعل الآن؟ ليس في العمر سوى هذا الكرسي واللحاف، فماذا أخسر؟

إنه الخوف من الماضي، إنه الخوف مما اكتسبت يداي، الآن بت أحسب ما اقترفت، الآن بت أفكر في أي كفة انتهيت.

شخص مثلي يعرف يقيناً أن منيته ستحضره هنا، على هذا الكرسي، أما الآخرون فعلى أي حال ستكون منيتهم؟

أحب أن تحضر منيتي على الكرسي الذي ألقى فيه أحفادي، إنه ما أفعل، إنه ما أزرع، ليتهم يحصدون محصولي.

حان الوقت، وحضر أحفادي يجلسون حولي بسرعة، ينتظرون الحكاية.

نظرت إليهم أسألهم: "هل يهم الناس أن يعرفوا على أي حال سيموتون؟"

لم يعرف أحفادي ما يقولون، فحاولت أن أسهل عليهم السؤال: "هل سيغير حياتهم أن يعرفوا على أي حال سيموتون؟"

قالوا: "ربما"

قلت: "إذن لننظر ماذا سيحصل للأربعة في هذه الحال.

بسام لم يستطع النوم، غادر المنزل وذهب إلى أقرب مطعم وطلب طبقاً من الدجاج المشوي.

كان المطعم فارغاً، فالوقت متأخر، وليس هناك أحد يتناول أطباق كهذه غيره.

بدأ يأكل بنهم، متناسياً كل ما جرى، فدخلت المطعم امرأة تحمل طفلها الرضيع، واتجهت إلى طاولته تطلب منه المعونة بلقمة تساعدها على إرضاع طفلها.

أشفق بسّام عليها، فقطع لها قطعة من الدجاج، فشكرته وغادرت.

تابع بسّام طعامه، فدخل المطعم صبي، اتجـه إليـه أيـضاً وطلـب إليه المعونة، فلم يأكل منذ الصباح، وليس بحوزته ما يـسكن جوعـه، فقطع له بسّام قطعة أخرى من طبق الدجاج، فشكره الصبي وغادر.

نظـر بـسّام إلى العـاملين في المطعـم لِـم يـسمحون للمتـسولين بالدخول، فوجدهم نائمين على الطاولات، ينتظـرون أن ينهـي طعامـه ليغلقوا المطعم.

تابع بسّام طعامه، فدخل المطعم شخص مريب، نحيـل الجـسد، مليئ بالكدمات والحروق، تفوح منـه رائحـة فاسدة، ووجهـه مـشوه بمرض جلدي لعين.

كان بسّام يجلس بالقرب من المـدخل، فمـا كـان لـه إلا أن واجـه الرجل على الفور.

نظر الرجل إليه بعيون جاحظة، ومد يده إلى طبقه وتناول قطعة الدجاج، ولم يستطع بسّام أن ينطق بأي كلمة، فقد كان المنظر مخيفاً.

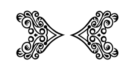
حاول بسّام النهوض ولكن الرجل وضع يده على كتف بسّام وقـد كانت قوية وثقيلة، وأجبره على الجلوس، ونظر إليه وهو يأكل طعامه بنهم.

رفع بسّام يد الرجل بكل ما أوتـي مـن قـوة، وقفـز عـن الطاولـة ليهرب من المطعم، ولكن الموظف استوقفه على الفور ليـدفع الحـساب،

هذه هي الحالة الوحيدة التي يستيقظ فيها الموظفون!

وضع بسّام يده في جيبه، فأحس فيها بشيء يتسلق ذراعه بسرعة، إنه عنكبوت ذو أرجل طويلة، يبلغ حجم الكف.

جفل بسّام، ودفعه بيده الأخرى بسرعة، وخرج من المطعم راكضاً إلى المنزل".



الفصل السابع والثلاثون

فريد

قال أحفادي بصوت واحد: "إي! هذا مقرف!"

قالت أصغر حفيداتي: "لقد وعدت ألا يكون هناك ما هو مقرف!"

قلت لها: "آسف على ذلك، ولكن هذا ما حدث فعلاً"

قال آخر: "هذا ما تؤلفه أنت"

ابتسمت وقلت: "حسناً، ما حدث لفريد لم يكن مقرفاً، كان فريد متردداً في استعمال سيارته، فقد حدث له الكثير هذه الأيام، وهو على يقين أن العرّافة تتابعه في سيارته حيث تنبأت له أن يموت فيها.

أخيراً حسم أمره إنه لن يستطيع أن يكف عن استعمال السيارة مهما فعل، وعليه أن يركبها ليذهب بها إلى أي مكان.

ركب فريد سيارته لينطلق بها وكله قلق مما سيجري، كان يتصبب عرقاً دون مشاكل تذكر.

فجأة ودون أن ينتبه، ظهرت العرّافة في المقعد الخلفي، إنها هناك، تمد يدها إلى وجه فريد، الذي انتفض لحظة إحساسه بها، ورؤيته أنه والعرّافة داخل السيارة.

فتح فريد الباب بسرعة ليخرج من السيارة، ولكنه عندما نظر جيداً، كانت أخته سرى تنزع قناع العرّافة تضحك عليه من موقفه المرعب.

حدّق بها تضحك مما يجري، وتهزأ به كيف خاف وخرج من السيارة، فلم يتمالك نفسه، وبدأ يوبخها بعنف، وأخرجها من السيارة، وبعد صرخات عدة بدأ يصفعها دون أن يتمالك نفسه، فبدأت تصرخ وتبكي إلى أن جاء فؤاد.

أمسك فؤاد أخاه وأبعده عن سرى وهو يقول: هل جننت؟ ماذا تفعل؟

ولكن فريداً لم يتمالك نفسه، وبعد صرخات عدة وعراك مع أخيه، ركب سيارته وانطلق بها بأقصى سرعة مبتعداً.

وصل فريد بالسيارة إلى طرف الوادي، أوقفها على الحافة، ونزل منها وهو يقول بكل اهتياج وتوتر: إنها السبب، هذه السيارة هي منيتي.

رفع فريد الفرامل، وجرّ سيارته إلى أن سقطت في الوادي، ونظر إليها وقد تهشمت تماماً.

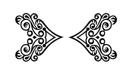
حدق بها فترة ثم بدأ يضحك، التفت خلفه فرأى العرّافة تقف على بعد أمتار منه.

لم يرتبك، ولم يهتم، بل ضحك وهو يقول: إنها هي، هذه السيارة قد تخلصت منها، لقد كنت سأموت فيها أليس كذلك.

ولكن العرّافة لم تحرك صامتاً، فقال فريد: لن يحدث شيء كهذا في سيارة أخرى، أليس كذلك؟

ولكن العرّافة لم تحرك ساكناً، فقال فريد منزعجاً: أليس كذلك؟

أشارت العرّافة بالنفي، فشعر فريد بخيبة أمل، وجثا على ركبتيه يبكي حاله".



الفصل الثامن والثلاثون

شادي

"مسكين" كان انطباع أحفادي.

ولكن أصغر حفيداتي قالت: "هل ضرب أخته فعلاً؟"

قلت: "لقد كان مزاحها ثقيلاً جداً عليه، ففقد صوابه"

فقالت أخرى: "وماذا عن شادي؟"

قلت: "في تلك الليلة كانت الأفكار تتقاذفه هنا وهناك، لم يستطع أن ينام، ظل القلق مسيطراً عليه، هل يعقل أن أحداً منهم وراء كل هذا؟

كانت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وما زال شادي يتقلب في الفراش، إلى أن سمع رسالة ترن في هاتفه، قرأها فإذا بها رسالة من مرسل مجهول، كتب فيها (إنها بحوزتنا، إذا ما كان أمرها يهمك فعليك القدوم إلى العنوان التالي...)

جفل شادي، من تكون غير قمر؟ اتصل فوراً بهاتفها، ولكنه كان مفصولاً.

ارتدى شادي ثيابه على الفور، ودون أن يفكر بأي عاقبة ذهب إلى العنوان الموصوف.

كان العنوان عبارة عن عمارة مهجورة منذ سنين، ذات جدران مهترئة، ونوافذ مكسورة.

دخل شادي بعد تردد بسيط، وبدأ ينادي بصوت يسمعه من في الطابق: قمر! قمر! هل أنت هنا؟ هل تسمعينني؟

ما من مجيب، ولكنه كان يعلم أنه ليس وحده، وأن هناك من يراقبه.

اتجه إلى السلالم ليصعد إلى الطابق الثاني، هناك لمح شخصاً يصعد قبله، يرتدي السواد.

فضّل شادي التمهل على اللحاق به، فهو على يقين أن الأمور لن تسير على ما يرام.

صعد السلالم بحذر، وقد كانت مهترئة وزلقة، ووصل الطابق الثاني، الذي كان موحشاً أكثر من سابقه.

نظر إلى الأثاث، يبدو أن صالة زفاف كانت هنا، ولكن المقاعد مكسورة، والطاولات مهترئة، ومقعد العريسين كان على الأرض.

تابع الصعود بهدوء، ولكنه سمع وقع أقدام تنزل بسرعة، جفل واستعد لما سيرى، فظهر أمامه أخيراً، كان الأستاذ إحسان، جفل هو الآخر لرؤية شادي.

أمسك إحسان بشادي وقال: ماذا تفعل هنا؟

قال شادي: ماذا تعفل أنت هنا؟

قال إحسان: تلقيت رسالة غريبة.

قال شادي: وأنا أيضاً.

عندها تابع إحسان نزول الدرجات بسرعة وقال: فلنخرج من هنا حالاً.

ولكن شادياً استوقفه قائلاً: ولكن قمر هنا! لا أستطيع التراجع.

نظر إحسان مندهشاً إلى شادي، ثم قال: خطيبتك هنا! ذاك كان صوتها في الأعلى.

ما إن سمع شادي قول إحسان هذا حتى ركض مسرعاً صاعداً السلالم، غير آبه بكلمات إحسان الرادعة.

صعد شادي السلالم المهترئة بأقصى سرعة، ووصل إلى الطابق الخامس والأخير، وصعد السطح، ولكن لم يكن أحدهم هناك!

تجول في السطح يبحث عن أثر لقمر، ولكنها لم تكن هناك، ولم يكن أحد هناك.

نظر من السطح إلى الشارع، فوجد العرّافة تخرج من العمارة، تسير بتثاقل.

حدق شادي بها، فنظرت تجاهه بسرعة، فجفل ولكنه انتبه إلى سكين دامية في يدها.

ركض شادي ينزل الدرجات ثانية بأقصى سرعة، وهو ينـادي: قمر! قمر!

وصل الطابق الثاني، فإذا بـه يجـد الأسـتاذ إحـسان ملقـى علـى الأرض بلا حراك، عيونه جاحظة، والدم يسيل من صـدره وقـد انتـشر مسافة على الأرض.

ارتعد شادي لما رأى، لقد قُتل إحسان، العرّافة فعلـت ذلـك دون شك!

اقترب شادي من إحسان، عنـدها سمـع صـوتاً مـن الطـابق الأول ينادي: شادي! شادي!

إنها قمر!

هرع شادي إلى الطـابق الأول والعـرق يقطـر منـه بـشدة، وقلبـه يخفق يكاد يغادر صدره، لقد كانت العرّافة هناك، لقد قتلت إحـسان، والآن قمر!

اتجه شادي إلى حيث سمع صوتها تنادي، وفتح البـاب بـسرعة وقد انقطعت أنفاسه، وكسا العرق كل ثيابه.

إنها هناك، تقـف بخـير، نظـرت إليـه وابتـسمت لـه ابتـسامة عذبة، فنظر إليها جيداً، إنها غير مقيدة، لا أثـر لأي خـدش، لا أثـر لأي مقاومة، وكأنها تجلس في المنزل!

نظرت قمر إلى شادي الذي كان قلقاً ويقطر عرقاً، فقالت: كنت أعلم أنك ستحضر من أجلي.

قال شادي: هل قامت بإيذائك؟

تعجبت قمر، وقالت: إيذائي! أبداً، إنه فقط اختبار لمدى اهتمامك بي، وقد كنتَ الأفضل.

جفل شادي، وقال: هل تعنين ما تقولين؟

ولكن قمر خرجت من الغرفة تقول: كان ذلك ممتعاً، كقصص الأميرات اللاتي ينتظرن الأمير المحرر.

انزعج شادي وقال: هذه ليست لعبة، حدث أمر خطير هنا!

نظرت قمر إليه وقالت: ليس هناك ما هو خطير، لقد كانت هذه مجرد لعبة.

لعبة! وكل هذا القلق، وإحسان، والعرّافة! أي استهتار هذا!

عندها سمع شادي وقمر صوتاً يقول: لا تتحركا، مكانكما!

نظرا فإذا بها الشرطة حوطت العمارة، تعجبت قمر لذلك وقالت: هل بلّغت الشرطة؟

أجاب شادي: كلا، ولكننا في ورطة حقيقية.

صعدت الشرطة إلى الطابق الثاني، ووجدت إحسان مقتولاً هناك، فأنكرت قمر أي تواطئ لها في الأمر، فزجّت الشرطة بشادي في السجن".

الفصل التاسع والثلاثون

راوي

حزن أحفادي على شادي، وقال أحدهم: "وماذا كانت تفعل قمر هناك؟"

قالت أخرى: "هل تلعب دوراً سينيمائياً؟"

قلت: "ربما، والآن سنترك شادياً وصدمته الكبيرة فيما رأى، ولنتحدث عن راوي.

راوي عاد إلى منزله، ودخل الصالة فوجد كل شيء هادئاً، ولكنه كان يحب دائماً الاطمئنان على إخوته في المساء.

فتح غرفة نوم سامي فلم يكن فيها، لابد أنه ينام مع أخواته.

فتح غرفة الأخوات فوجد الثلاثة مستلقين على الأرض فاقدي الوعي، وحولهم زجاجات من الخمر معظمها كان قد فرغ! إلى جوارهم كانت الكثير من الدمى المريبة الشكل، وكان صوت ضحكات خفيفة تصدر منهم!

ارتعد راوي لما رأى، هل يعقل أن يكونوا قد شربوا كل هذا؟ هذا قد يقتلهم!

ركض إلى إخوته، ولكن الدمى انفجرت وقتها، ونشرت

قطنها في كل مكان.

لم يستيقظ الثلاثة، ولم يشعروا بصراخ أخيهم ومناداته لهم مراراً.

ركض راوي إلى الهاتف ليتصل بالإسعاف، ولكن الهاتف كان مفصولاً، أحدهم قد قطع أسلاكه.

سمع راوي صوت أقدام تتحرك في الغرفة، ولكنه لم يستطع أن يشاهد أحداً حيث أن الغبار والقطن قد حجب كل الرؤية. على الرغم من ذلك، حدس قوي كان يقول له إنها العرّافة.

صرخ راوي يقول: ماذا تريدين؟ إذا ما كان هناك حساب بيننا فاتركي اخوتي وشأنهم!

ولكنه لم يسمع الرد، فقال ثانية: أنا من تريدين، اتركي اخوتي وشأنهم، لا شأن لهم بما يجري!

عندها سمع صوت طفلة صغيرة تتمتم بصوت جميل أغنية حزينة، وبعد برهة بدأت الطفلة تبكي، التفت راوي حوله يبحث عن صاحبة الصوت، ولكنه لم يجدها في أي مكان، فعادت الطفلة تتمتم وتبكي في آن واحد، ثم بدأت تضحك، ارتفع صوت ضحكتها أكثر فأكثر، ثم تلاشى.

أخيراً سمع راوي صوت سامي يقول: ساعدني.

ركض راوي إلى حيث سامي يتحسس مكانه الذي كان فيه، ولكنه لم يكن موجوداً، بحث عنه حيث كان، ولكنه لم يجده! نادى راوي على اخوته ولكن أحداً منهم لم يجب، بل سمع صوت اخته رشا تقول: نحن بحاجة إليك.

رشا أيضاً لم تكن في مكانها، أخيراً سمع صوت هناء تقول: أنت أملنا الوحيد.

صرخ راوي ينادي، وبدأ الغبار يتلاشى، والرؤية تتضح شيئاً فشيئاً، لا أحد في الغرفة، إنه وحده!

خرج من الغرفة ينادي بأعلى صوته على إخوته، فسمع صوت هناء تقول: راوي!

ركض راوي إلى حيث سمع الصوت، إنها في غرفتها، فتح الغرفة بسرعة فإذا بالثلاثة يستيقظون من النوم، وقد سمعوا صوته ينادي.

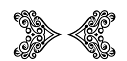
ركض راوي إليهم ليطمئن عليهم، لم يحدث لهم مكروه، إنهم بخير، ولم يشعروا بشيء غريب قد جرى! فماذا كان ذلك؟"

قال أحد أحفادي: "العرّافة لا تؤذي أحداً"

ابتسمت وقلت: "ربما"

قالت حفيدة أخرى: "ولكن إحسان قد مات"

بانت خيبة الأمل على حفيدتي الصغيرة بفقدان إحسان من الرواية، فقلت: "هذا ما لدينا اليوم، وللحكاية تكملة"





الجزء العاشر

تحقيق

الفصل الأربعون

في الشرطة

صباح جديد يطل على المدينة، مر زمن ولم أقابل أحداً، الزملاء، الأصدقاء، الأخلاّء، أين هم الآن؟

عندما يتقدم بك السن تصبح الأولويات مختلفة، فقد بات أقرب الناس إلى قلبي هم أحفادي، ولم أعد أذكر الأصدقاء، بل أشك في أن بعضهم ما يزال على قيد الحياة!

أبهذه البساطة أقول ذلك؟ هؤلاء الذين عاشرتهم طول العمر، كم كان أمرهم يعنيني، كم كان لقاؤهم يواسيني، كم كنت أقضي العمر معهم، أما الآن فقد تفرق الجميع.

يالها من دنيا عجيبة، يا لها من حياة فانية، تلك التي نظن في كل لحظة فيها أن جميع الأشياء مهمة، وفي لحظة أخرى تختلف الموازين كلياً.

عصور مضت، وحضارات اندثرت، وما زلنا نظن أننا الأهم في هذه الدنيا، وأننا المركز الذي تحوم حوله كل الأشياء.

آه لو يعلم الإنسان موقعه على خارطة التاريخ، عندما أفكر في الأمر الآن أقول، الحمد لله الذي يرانا حيث يهجرنا التاريخ.

حضر أحفادي الذين لا هم لهم سوى اللعب والمرح، وأكبر مخاوفهم هي الامتحانات الدراسية، وأجمل لحظاتهم هي الضحكات اللامشروطة.

تحلقوا جميعاً، مستعدين للمتابعة بكل لهفة.

قالت أصغر حفيداتي: "أنا مستاءة جداً من هذه الحكاية"

سألتها: "لماذا؟"

أجابت: "الجميع تعساء، أشياء غريبة تحدث، أمور مخيفة يمر بها الأربعة، وفوق كل ذلك مات إحسان"

قال أحد أحفادي: "الحكاية ممتعة، ولا أجد فيها أي استياء"

نظرتْ إليه حانقة، فقلتُ: "هلاّ تابعتي الحكاية إلى النهاية، لربما تجدين فيها ما يواسيك"

وافقت حفيدتي على مضض، فابتسمتُ وتابعت الحكاية أقول: "هل تظنون أن شادياً كان الوحيد الذي علق في مقتل إحسان؟ إذن فكروا ثانية.

توصلت الشرطة من خلال التحقيق إلى أن إحسان كان مدرساً في الجامعة المريبة، وأن شادياً كان أحد التلاميذ الناجحين، إذن كان عليها أن تجمع كل من لهم علاقة بهذه السلسلة.

الناجحين الثلاثة الباقين، والمدرسين، والمدير.

وبما أن أحداً لا يعرف شيئاً عن المدرسين أو المدير، كان من الأسهل الإمساك بالناجحين الثلاثة المتبقين.

قبضت الشرطة على بسّام وفريد وراوي، وبدأ الاستجواب.

الأستاذ إحسان قُتل! كان هذا رد كل منهم عندما سمع بالخبر المريب، كيف؟ أين؟ ولماذا؟

لم يتجاوز التحقيق أكثر من ذلك في البداية، إلى أن تحدث شادي عن العرّافة التي ضحك الشرطة من حكايتها، وسألوا عنها الثلاثة الباقين، فأثبتوا جميعاً صحة رواية شادي عن العرّافة، والأعمال المريبة التي تقوم بها.

كذّبت الشرطة حكاية العرّافة بكل بساطة، واعتبرتها ضرباً من الخيال المفتعل.

ومضى اليوم دون نتائج تذكر، ولم تستطع عائلاتهم الوصول إليهم، حيث أنكر قسم الشرطة وجود محتجزين بتلك الأسماء.

في الساعة الثانية من منتصف الليل، وحيث كان بسّام ينقش على الأرض رسمة جذابة من جداول ونخيل، سمع صوتاً مريباً، وقد قذف أحدهم إليه بمفاتيح السجن!

لم يستطع أن يميز الفاعل، فقد كان المكان مظلماً، ولكنه كان متأكداً أن المفاتيح بحوزته، وقد قفز يجربها واحدة تلو الأخرى حتى

اهتدى إلى مفتاح زنزانته.

فتح الزنزانة لا يدري من الذي حرره، ولكنه نظر إلى المفاتيح الأخرى، فعلم أنها مفاتيح زنزانة زملائه الثلاثة.

هرع إلى فتحها، وساعدهم على الخروج، وقد تساءلوا من الذي حررهم، ولكن الوقت لم يكن ملائماً للتفكير في الإجابة، عليهم فقط الخروج من هنا قبل أن يحكم عليهم بالإعدام الجماعي.

فتح شادي الباب المؤدي إلى مكتب الشرطة بحذر، كان عليهم اجتياز هذا المكتب للخروج، وكان من المؤكد أنه يحوي شرطياً على الأقل.

لم يناقشوا الأمر مسبقاً، ولم يخطر ببال أحدهم ماذا سيفعلون حيال الشرطة هناك، ولكن هذه التساؤلات لم يكن لها داع لما شاهده شادي بأم عينه.

لقد كان الشرطي معلقاً بحبل في منتصف الغرفة، والدم يقطر من ساقيه، إنه قد قُتل شنقاً!

نظر إلى الطرف المقابل من الغرفة، وقد كانت العرّافة تمسك بالطرف المقابل للحبل.

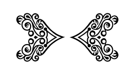
تركت العرّافة الحبل، فسقط الشرطي ميتاً على الأرض، وغادرت الغرفة بهدوء.

ظل الأربعة جافلين للحظات، إن العرّافة قاتلة محترفة، أولاً إحسان، والآن الشرطة.

قال بسّام: لنغادر قبل أن نتهم بقتل هذا أيضاً.

وافقة الجميع، واتجهوا إلى الصالة المؤدية إلى الخارج، فجفلوا لما رأوه فيها أيضاً! هناك ما لا يقل عن خمسة من الشرطة باتوا جثثاً على الأرض!

تقيأ راوي مما رأى، بينما لاحظ الباقون رسالة كُتبت بالدم على الحائط بشكل كبير: (إلى الجامعة)".



الفصل الحادي والأربعون

إلى الجامعة

تعجب أحفادي: "الجامعة ثانية!"

ولكن أذكاهم قال: "كنت أعلم أن أساس الحكاية هي الجامعة"

فقلتُ: "ولكن كـان علـيهم أن يتناقـشوا فيمـا بيـنهم قبـل قبـول الدعوة العجيبة"

فسألت إحدى حفيداتي: "وهل سيذهبون؟"

قلتُ: "بعد نقاش لم يدم طويلاً، قرروا الذهاب، وسيتحملون في سبيل إنهاء تلك الكوابيس أي تبعة"

قالت إحدى حفيداتي: "ولـماذا يـذهبون وحيـدين؟ علـيهم إبـلاغ الشرطة"

فقال آخر: "الشرطة التي ماتت منذ لحظـات، والـتي سـيتهمون بقتلها لا محالة!"

قلتُ: "هذا بالضبط ما فكر فيـه الأربعـة، الـشرطة لـن تقـف إلى صفهم، وعليهم أن ينهوا حسابهم مع العرّافة بأنفسهم.

اتجـه الأربعـة بخطـوات مـتردده إلى الجامعـة، كانـت كمـا هـي، مهجورة مريبة، ليس فيها من جنس بشري، بل ليس فيها أي أثر لحياة!

تسلق الأربعة البوابة ودخلوا، بعد مسير دقائق في الممرات وجدوا بناية وضع عليها لافتة تقول (مبارك للفائزين).

لم يدر أحد أكانت هذه لافتة قديمة أم أن العرّافة وضعتها ليدخلوا البناية.

لم يكن لديهم خيار سوى التحقق، ودخل الأربعة البناية التي لم يسبق لأحدهم أن دخلها.

كانت الصالة نظيفة على غير المتوقع، والأرضية الرخامية تعكس ما فوقها، وجميع التحف ملمّعة بشكل متقن!

هذا ليس مكاناً مهجوراً بكل تأكيد، لقد كان أحدهم هنا قبل لحظات.

تجول الأربعة بحذر، إلى أن وجد شادي ممراً وضعت لافتة فوق بوابته كُتب عليها (راوي).

كذلك وجد الآخرون أسماءهم على ممرات أخرى، ماذا يعني هذا؟

يبدو أن العرّافة تريد منهم أن يتفرقوا تبعاً للبوابات، ولكن هل ينصاعون لمثل هذا الفخ الواضح؟

سأل فريد: هل من اقتراحات؟

قال بسّام ببساطة: هذا فخ واضح، علينا أن نظل معاً.

قال شادي: إذن أي البوابات ستدخلون؟

قال بسّام: نتفق على باب واحد، باب راوي مثلاً.

علم راوي أن ما في الداخل سيفضح سره، فقال: ولماذا بوابتي أنا؟ لماذا لا ندخل بوابتك أنت؟

بسّام أيضاً كان يعلم أن ما في بوابته يخصه وحده، فقال: ولماذا تعترض على بوابتك أنت؟

قال شادي: توقفا، إن لدينا قائداً، نستطيع أن ندخل معه بوابته الخاصة.

ابتسم فريد خجلاً، حيث وضعه شادي في موقف لا يستطيع أن يرفض فيه الاقتراح، ومع ذلك فقد قال: بما أنني القائد، أقترح أن يدخل كل منا بوابته الخاصة.

تفاجأ الثلاثة من هذا الاقتراح، ففسر فريد قائلاً: كل منا لديه حسابه الخاص مع العرّافة، من حقنا أن نحافظ على خصوصيتنا.

رغم أن ما قاله فريد صحيح، إلا أن الأربعة كانوا على يقين أن في تفرقهم ضعف شديد، وفوق ذلك فإن شادي بدأ ينظر إلى فريد نظرة شك، هل هو من يفعل بهم كل هذا فعلاً؟

قال راوي: لا مشكلة، أنا سأدخل من بوابتي.

دخل راوي بوابته بشجاعة تاركاً الباقين في حيرة من أمرهم، وأخيراً اتجه كل منهم إلى حيث اسمه، ودخلوا إلى مصيرهم المجهول".

الفصل الثاني والأربعون

في البوابة الأولى

قال أحد أحفادي: "هذا تهور!"

قال آخر: "إنهم يسيرون إلى حتفهم"

قالت إحدى حفيداتي: "وهل سينجون وحيدين؟"

قلتُ: "لم يكن أحدهم يفكر بهذه الطريقة، كل منهم كان يخشى أن يفتضح أمره أمام الآخرين"

قال أكبر أحفادي: "إذا كان هناك ما يخشون افتضاحه، فلماذا يفعلونه منذ البداية؟"

ابتسمت وقلت: "ليت كل الناس يفكرون بهذه الطريقة، ولكن الواقع مختلف"

قالت أصغر حفيداتي: "وماذا وجدوا داخل البوابات تلك؟"

تابعت الحكاية أقول: "بسّام دخل ممراً طويلاً، كلما فتح باباً في آخره وجد ممراً آخر!

ممر تلو ممر، لم يعد يعرف إلى متى سينتهي ذلك، إلى أن وجد دمية ملقاة في منتصف الممر.

كان منظر اللعبة بشعاً، وكانت ملقاة باستهتار في المنتصف،

بعد توقف لحظات تابع بسّام مسيره تجاهها.

سمع صوت سعال، من ثم نهضت الدمية لتواجهه.

توقف بسّام يحدق في الدمية، إنها بطول ذراع كاملة، ولا يبدو أن أحداً يعتني بها، فهي متسخة.

لم يدر بسّام ما يفعل، ها هي الدمية تقف في المنتصف، وعليه أن يمر عنها ليصل إلى البوابة التاليه.

ظلت الدمية واقفة لا تحرك ساكناً، فتحرك بسّام خطوة إلى الأمام، فتحركت الدمية خطوة تجاهه أيضاً.

لم يكن ذلك مريحاً، ماذا سيحصل بعد؟ تحرك بسّام خطوة أخرى إلى الأمام، فتحركت الدمية تجاهه أيضاً.

بدأ العرق يتصبب من بسّام، وسمع صوت ضحكة طفلة تصدر من الدمية، بات الوضع مزعجاً.

توقف بسّام عن الحراك تماماً، فبدأت الدمية تترنح يميناً ويساراً في مكانها تنتظر أي حركة، عشر ثوان، عشرون ثانية، لم يحرك بسّام ساكناً، عندها قفزت الدمية قفزة سريعة مريبة إلى وجه بسّام، الذي فقد وعيه على الفور.

استعاد بسّام وعيه شيئاً فشيئاً، وكان أول ما لفت انتباهه هي الرائحة النتنة حوله.

رفع رأسه الذي كان يؤلمه من أثر الضربة، ووجد نفسه في غرفة معتمة، لا يكاد يرى فيها ما هو أبعد من ذراعه.

رفع بسّام يده، فشعر أنه يجلس على شيء طري، رطب، لزج بعض الشيء، تفوح منه الرائحة النتنة بكل تأكيد.

نظر بسّام حوله، فلاحظ أنه في غرفة مليئة باللحوم النتنة، مما جعله يتقيأ من المنظر.

ظهرت بعض الأضواء من الجدران، رغم أنها كانت خافتة، إلا أنها كانت ذات مفعول كبير وسط الظلام الدامس.

تمالك بسّام نفسه، ونهض وسط أكوام اللحم، ونظر حوله، فإذا بأعمدة وأبواب ونوافذ في كل مكان! بل لم يكن وحده، هناك أناس يقفون خلف الأعمدة، بعضهم ينظر إليه، والبعض الآخر يجلس حزيناً مطأطئ الرأس، كما أن هناك أبواباً حديدية كبيرة، ونوافذ تطل على قمر في ليلة غيماء.

إنه الليل، لم يمض الكثير من الوقت إذن، حاول أن ينادي الأشخاص في الغرفة، ولكن لا مجيب، بل إن أحدهم لم يحرك ساكناً!

تحرك بسّام من وسط الغرفة متجهاً إلى الرجل الذي كان يجلس خلف العمود يحدق فيه، اقترب منه أكثر فأكثر يتفادى اللحوم حوله قدر الإمكان، إلى أن وصل إليه، فوجده مجرد رسمة متقنة على الجدار!

لم تكـن هنـاك أعمـدة، إنهـا رسـومات متقنـة، ذات أبعـاد مدروسة، كل شيء كان مرسوماً، حتى النوافذ والأبـواب، إنهـا غرفـة صغيرة مغلقة، لا يجد فيها مدخلاً أو مخرجاً!

أخيراً سمع بسّام صوتاً غريباً، إنه أشبه بتلاطم أجـسام لزجـة، واحتكاك مع الرطوبة، نظر خلفه فـإذا بـاللحوم تتجمـع في المنتـصف، كأنها ستشكل شيئاً ما!

تقيأ بسّام ثانية من المنظر، عندها سمع صوتاً مـن ورائـه يقـول: من هنا!

نظر بسّام وراءه، فإذا بها سميّـة، أسـتاذة الرسـم في الجامعـة! كانت تشير إليه أن يتبعها، فقد كانت تقف في ممر مجهول.

لم يكن لدى بسّام خيار آخر، ركض تجاهها لا يريد أن يعـرف ما سيحل في الغرفة، كل ما يريد في هذه اللحظة أن يغادر.

خرجا من الطرف الآخر للممر، إنهما في صالة في إحدى بنايات الجامعة. التقط بسّام أنفاسه، فقالت سميّة: لقد جلبوك أيضاً.

أيضاً!

فقالت: لا أظن أننا وحدنا، هناك بعض المدرسين والطلبة، هـذه جامعة مشؤومة.

فقال بسّام: ولماذا أنت هنا؟

قالـت: لقـد كنـت نائمـة في المنـزل، وفجـأة وجـدت نفـسي في الجامعة! هذا مخيف.

قال بسّام: هل تعرفين ماذا يريدون؟

قالت: وما أدراني؟ أنا حتى لا أعـرف رئـيس الجامعـة! آه كـم كنت عمياء عندما قبلت العمل هنا، كان علي أن أشك في كل شيء.

قال: كل شيء؟

قالت: الرواتب الباهظة، الامتيـازات البرّاقـة، كـل شـيء كـان مزيفاً، هناك أمر مريب هنا.

سأل: ماذا تظنين؟

قالت: لا أصدق أنني بـدأت أصـدق حكايـات الأشـباح والأمـوات التي تصدر عن هذه الجامعة، لم أعد أعرف بم أفكر.

نظر بسّام حوله، يبـدو أن سميّـة لا تعـرف الكـثير، علـيهم أن يفكروا سوياً بحل لهذا المأزق، عندها تذكر وقال: هل تذكرين الأسـتاذ إحسان؟

قالت: مدرس الموسيقى؟

قال: أجل، لقد قُتل.

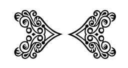
لم تصدق سميّة ما سمعت، اقتربت من بسّام وفي عيونهـا دهـشة وخوف تقول: هذا غير معقول!

قال: قتله من يلعب بنا الآن.

وضعت سميّة يدها على رأسها، وبدأت تهذي وتقول: لن أعود إلى المنزل!

حاول بسّام تهدئتها، فآخر ما يحتاجانه الآن هو الارتباك، ولكن سميّة بدأت تبكي وتندب حظّها.

تركها بسّام على حالها، وبدأ يتجول في الصالة، علّه يجد مخرجاً من هذا المأزق".



الفصل الثالث والأربعون
البوابة الثانية

قال الأحفاد: "كل منهم سيدخل بوابة فيها ما يخصّه"

نظرت إلى أصغر حفيداتي التي كانت تبكي، سألتها ما الذي يبكيها، فقالت: "سميّة تبكي إحساناً، لقد كان شخصاً رائعاً"

قال أحد أحفادي: "إنها تبكي حظّها العاثر"

ابتسمتُ وقلت: "ربما الاثنان معاً، والآن سأخبركم عن البوابة الثانية التي دخلها فريد

دخل فريد ممره الخاص، وقد كان ممراً طويلاً منزلقاً، وكان عليه أن يصعد إلى أعلى.

تطلب ذلك منه وقتاً وجهداً، فقد كان من الواضح أن ممراً مثل هذا كان مصمماً لغايات النزول فقط.

توقف فريد ينظر في المر، هناك أشياء معلقة من بعيد، اقترب في حذر، فرأى مجموعة من الدمى مشنوقة على الحائط!

كان هناك سائل أسود يقطر من الدمى، رغم أن المنظر كان مريباً إلا أن فريداً كان على موعد مسبق مع الغرائب، فلم يذهله المنظر، وسار بحذر بمحاذاة الحائط.

ظل فريد يراقب الدمى بحذر وهو يلتصق بالحائط ليعبر، ولكنه لم يفطن إلى يد تكسر الحائط من ورائه لتمسك به.

فقد فريد وعيه، وما إن استيقظ حتى وجد نفسه في غرفة معتمة جداً، لا يكاد يرى فيها كفه.

جلس يحاول تحسس المكان، الأرضية كانت معدنية، والجو كان بارداً.

في تلك اللحظة أنيرت أضواء كثيرة تجاهه، أغمض فريد عينيه فوراً، وبدأ يفتحهما ببطء ريثما اعتادت عيناه النور.

أخيراً وجد نفسه وسط حقل من السيارات المتنوعة، كلها تصطف متجهة نحوة، وجميعها تنير إضاءاتها تجاهه.

ظل فريد متسمراً مكانه ينظر إلى السيارات وكأنها تحدق فيه، كما سمع صوت المحركات تعمل، وبدأت السيارات تتحرك ببطء تجاهه مشكلة حلقة هو مركزها.

لم يكن هناك أي مكان يتحرك إليه، هناك ما يقارب العشرين سيارة تحدق فيه، وتتجه نحوه ببطء.

فجأة سمع صوت زجاج ينكسر! نظر إلى حيث الصوت فوجد الأستاذ ضياء، الممثل البارع النشيط، كان يحمل عصاً حديدية يكسر بها زجاج السيارات.

وقف فريد ينظر إليه، فصرخ ضياء قائلاً: من هنا!

قفز فريد فوق ما استطاع من سيارات، وكسر ضياء ما استطاع من زجاج، إلى أن تحول تجاه السيارات من فريد إليه.

وصل فريد إلى ضياء الذي رمى العصا وأمسك يد فريد ليهربا سوياً من هذا المأزق.

لاحظ فريد أن ضياء يعرف الطريق، فعلل ضياء على الفور: هذا الممر الذي أوصلني إلى الحجرة، لابد أنه سيكون أفضل من هنا.

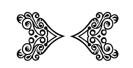
فسأل فريد: وماذا تفعل هنا؟

أجاب ضياء: لا أدري! لقد كنت نائماً في منزلي، واستيقظت لأجد نفسي هنا.

قال فريد: هل أنت الأستاذ الوحيد في الجامعة الآن؟

نظر ضياء إلى فريد وقال: الجامعة! هل نحن في الجامعة؟

يبدو أن ضياء كان يجهل الكثير من الأمور، وليس هناك وقت لشرح الكثير، فقد وصلوا إلى صالة فارغة، التقطا أنفاسهما ليسأل ضياء فريداً عما يجري، فشرح له فريد ما جرى لهم بعد التخرج باختصار، وما كان من العرّافة من عجائب".



الفصل الرابع والأربعون

البوابة الثالثة

قال أحد أحفادي: "كادت السيارات تهاجمه!"

سألت إحدى حفيداتي: "هل كانت السيارات ستدهسه؟"

قال آخر: "المهم أنه نجا"

قلتُ: "ليس كثيراً، أما الآن فسنتحدث عن شادي.

بدأت البوابة بسلالم تدور إلى أسفل، لم يستطع شادي معرفة طول السلالم وإلى أي مدى سيظل ينزل إلى أسفل.

مشى قليلاً، وكلما اقترب تأكد أنه يسمع موسيقى تعزف.

هناك في الأسفل موسيقى عذبة، هل هناك من أحد يعزف أم أنه فقط صوت تسجيل؟

توقف شادي، هناك شيء على الدرج، ليس يميز ما هو، شيء مثل القماش!

اقترب منه بحذر، ومد يده إليه، فارتجف القماش. أبعد شادي يده قلقاً، فتحرك القماش، ورفعت الدمية رأسها تنظر إلى وجه شادي مباشرة.

تراجع شادي إلى الوراء، فأخرجت الدمية قيثارة صغيرة،

وبدأت تعزف عليها.

رغم أن شادياً كان متأكداً أن الدمية لا تستطيع أن تعـزف بهـذه البراعة، إلا أن صوتاً عذباً كان يصدر من القيثارة! كيف لها أن تعزف هكذا؟ لا بد أن هناك حيلة!

ظل شادي واقفاً لا يعرف ما يفعل، استمع إلى العزف الجميل لا يدري هل الوضع مطمئن أم أنه أسوأ مما يظن!

خلال العزف الجميل انقطع خيط من القيثارة، وتوقفت الدميـة عن العزف! ظل شادي يحدق بها، فطأطأت الدمية رأسـها حزنـاً علـى ما جرى، وعادت إلى الجلوس على الدرج ثانية.

ظلت الدمية جالسة على الدرج نصف دقيقة، اضطر شادي فيهـا لحزم شجاعته، والسير بمحاذاتها ليكمل نزول الـسلالم. ولكـن مـا إن وضع قدمه بجانب الدمية حتى انقضت علـى قدمـه تمـسكه بقـوة، ثـم شعر بضربة على رأسه وفقد وعيه فجأة.

بعد فترة لم يستطع شادي تقديرها اسـتيقظ، كـان يجلـس علـى كرسي في صالة مـضيئة، وبـات صـوت الموسيقى عاليـاً، وهنـاك أنـاس يرقصون، إنهم كثر، سعداء، مستمتعون!

أين هو؟ في حفلة من؟ وماذا يفعل؟

نهض عن الكرسي يترنح، ونظر في الجمـوع، هنـاك أوركيـسترا

فاخرة، وصالة الرقص أكثر من جميلة، إنها أجمل الصالات التي شاهدها في حياته.

نظر في الجموع الراقصة، إنهم كثر، يرقصون رقصات ثنائية.

لمح من بينهم قمر! إنها هناك تراقص أحدهم!

تحرك شادي بسرعة بين الجمهور، ولكن الازدحام جعلها تختفي من أمامه بسهولة.

ظل شادي يدافع الراقصين، يبحث عن قمر، بل نادى اسمها عبثاً، فصوت الموسيقى كان عالياً جداً.

أخيراً لمحها ثانية من ناحية أخرى، هذه المرة كان قد لمح مراقصها، إنه فريد!

شعر شادي بالدم يغلي في رأسه، ماذا يفعل فريد مع خطيبته؟ ركض تجاههما واخترق الناس بكل ما أوتي من قوة، ولكنه فقدهما ثانية.

ظل شادي يراقب الجموع يميناً وشمالاً، يبدو أنهما ابتعدا. سار بين الحشود يبحث عنهما، عليه أن يجدهما بأية وسيلة.

يمين، يسار، لا أثر! ألا توجد نهاية لهذه الحفلة؟ ألا يتوقف الناس؟ ألا يتوقف العزف؟ هذا ممري، وهذه حياتي، على الجميع أن يتوقف الآن!

وقف شادي في منتصف القاعة وصرخ بأعلى صوته: توقفوا!

توقف الجميع، ونظروا إليه حيث كان يلـهث ويتـصبب عرقـاً، ولكن نظراتهم بدأت تشوبها الريبة، من هذا؟ من يكون؟ ولماذا يأمرنـا بالتوقف هكذا؟

ظل شادي واقفاً وسط الجمهور الحانق، أخيراً لمح قمـراً وفريـداً يحاولان مغادرة القاعة من باب الطوارئ، فهرع للحاق بهما.

ركض شادي إلى حيث بـاب الطـوارئ، فوجـده مغلقـاً بإحكـام، ضربه ضربات متتالية ولكن بلا فائدة، يبدو أن القفل كان محكماً.

حاول أن يبحث عن أداة تمكنه من فتح الباب، فنظـر في القاعـة من جديد ليجد الجميع يرقصون يرتدون أقنعة العرّافة.

جفل شادي وظل ينظر في المشهد، هناك مـا يقـارب المئـة عرّافـة تراقص بعضها! ماذا سيجري؟ ماذا سيكون مصيره؟

تراجع شادي إلى الوراء ليرتكز على البـاب، ولدهـشته لم يكـن الباب مغلقاً، بل سقط شادي على ظهره حيث ظن أن الباب سيسنده!

هناك سلالم طوارئ إلى الأعلى والأسفل، أين يمكن أن تكون قمـر قد ذهبت؟

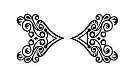
نظر شادي إلى السلالم، وإلى مقبضها، لابد أن يكـون هنـاك أثـر ما. كل ما وجده هو بريق لفستان قمر علـى الـسلالم العليـا، فاختارهـا وركض إلى أعلى.

في الطابق العلوي كانت هناك غرفة واسعة، خافتة الإضاءة، ليس فيها سوى بعض الشموع، وهناك في المنتصف تابوت مقفل.

اقترب شادي ببطء نحو التابوت، كان يشعر أنه يعرف ما سيجد في داخله. كان قلقاً، والدم يغلي في رأسه، والعرق يتصبب من جبينه.

وقف أمام التابوت لا يدري هل يملك الجرأة لفتحه.

التقط شادي أنفاسه بصعوبة، ورفع غطاء التابوت ليجد ما توقع، إنه الأستاذ إحسان".



الفصل الخامس والأربعون

البوابة الرابعة

"آه!" صرخت أصغر حفيداتي: "إحسان! إحسان!"

نظر إليها باقي الأحفاد نظرة المبالغ في تصرفاته، إنها لا تسمع من الحكاية سوى اسم إحسان.

ابتسمتُ وقلت: "نعم، لقد كان إحسان، يرقد هناك وحيداً، أما الآن فسنترك شادي ونعرض لراوي.

سار راوي في ممره الخاص، كان متاهة حقيقية، كل ممر يؤدي إلى تفرعات، وكل تفرعات تؤدي إلى أخرى، وما كان راوي ليحزر أي ممر يدخل، فلم يكن هناك فرق في المصير بين الممرات.

وصل إلى بركة صغيرة في الممر، كان عليه أن يجتازها، ولكنه لم يحزر عمق المياه، عليه أن يسبح.

خشي راوي ما قد ينتظره تحت الماء، وكان فعلاً ما خشي، فقد طافت دمية صغيرة على سطح الماء.

ظل راوي واقفاً ينظر هل ستتحرك، ولكنها ظلت ساكنة، ووجهها مغمور في الماء.

اقترب راوي خطوة واحدة، فسمع صوتاً خافتاً يقول: ساعدني!

كان راوي يعلم أنها الدمية، ولكنه لم يجرؤ على الاقتراب أكثر، وظل واقفاً ينظر إليها، إلى أن رفعت رأسها عن الماء تنظر إليه.

كان وجهها مبتلاً، وشعرها ممزقاً، وعينها مثقوبة، كان منظرها مخيفاً، ولكن مباغتاً دفعه من الخلف إلى البركة، وكان آخر ما تذكره، حيث فتح عينه ليجد نفسه في صالة واسعة.

كانت الصالة ذات إضاءة خافتة، وكان المكان مليئاً بالمقاعد والطاولات، وعلى كل طاولة وضعت أشهى الخمور وأثمنها.

لم يكن هناك من أحد في الصالة، مع ذلك كان يسمع صوت ضحكات تملى من كل زاوية، وصوت كؤوس تطرق، وشراب يسكب، كان المكان نشيطاً رغم أنه كان مهجوراً.

تحرك راوي خطوات داخل الصالة، ينظر إلى المشروبات حوله في كل مكان، فجأة سمع صوت زجاجة تتدحرج على إحدى الطاولات، نظر إلى حيث الطاولة فرأى الزجاجة تسقط عن الطاولة وتنكسر على الأرض.

كانت تلك الزجاجة الأولى فحسب، فقد بدأت الزجاجات الأخرى تتدحرج على الطاولة وتنكسر على الأرض الواحدة تلو الأخرى، إلى أن امتلأت أرض الغرفة بالمشروب.

ظل راوي واقفاً ينتظر ما سيحصل بعد، وفعلاً نظر إلى حائط

كبير في الصالة وقد بدأت بعض العلامات تظهر عليه، إنها كتابات، تكتب بحبر أسود من تلقاء نفسها!

(كان يا مكان، أربعة شبان، كلهم فنّان...

عرفوا المصير، من سيدة بصير، بما سيصير...

كلّ فانون، مما يخفون، ولكنه سيكون...

هذا محتوم، وما يستحقون، فلا يجادلون...)

فجأة ظهرت العرّافة من بين ظلال الغرفة، وقد كانت قريبة من راوي، ففزع لرؤيتها، وتراجع إلى الوراء وسقط على الأرض المبتلة، وزحف عليها محاولاً الهرب.

جرحت يده بأثر الزجاج المنتشر على الأرض، ولكنه من فزعه لم يشعر بالألم، بل نهض ليركض إلى أي مكان مبتعداً عن العرّافة.

قابلته بوابة لم يدر هل كانت نفس البوابة التي دخل منها، ولكن لم يكن لديه خيار آخر، فتحها وسقط من فوره في حفرة منزلقة قادته إلى صالة مختلفة.

كانت صالة فارغة باستثناء طاولة في منتصف الصالة، مليئة بالكتب والأقلام والأوراق، وكان أحدهم يجلس خلفها غارقاً بالكتابة، ولكن الكتب كانت تحجب وجهه عن راوي".

الفصل السادس والأربعون

إلى النهاية

توقفتُ عن سرد الأحداث، فقد تأخر الوقت أكثر من المعتاد، ولكن أحفادي اعترضوا على الفور: "ستتابع هذه المرة! لم يبق من الحكاية الكثير! لن ننام اليوم!"

ابتسمت وقلت: "ولكن غداً مدرسة"

فصاح الجميع بصوت واحد: "غداً عطلة!"

آه، ما بت أميز أيام الأسبوع، بات الأربعاء كالجمعة، العطل كغير العطل، الشهر كالذي سبقه، السنة كتاليتها، ما بات للوقت معنى، بتّ كمن سافر إلى الفضاء الخارجي حيث يتلاشى الوقت، وتنعدم الجاذبية، وتنكسر المسلّمات.

هناك في الفضاء تحوم حولي الأجرام، كل منها يحمل تاريخه، كل منه يحمل أيامه، ولكن الفضاء... الفضاء ليس له أيام!

بهذه الفرضية هل تنعدم أهمية الفضاء؟ أليس هناك فوائد لفضائنا؟

كيف لا، وهو من يحوي كل الأجرام.

أمسكت حفيدتي الصغيرة بيدي، وانتشلتني من فضائي

وقالت: "تابع يا جدي، لن ننام قبل أن تنهي الحكاية"

أشار الأحفاد الآخرون بالرأي نفسه، فابتسمت وقلت: "حسناً، هناك تركنا الأربعة كل في صالة مختلفة، بسّام كان مع سميّة التي كانت تجهش بالبكاء، وبينما كان يتجول في الصالة بحثاً عن مخرج، وجد رسمة صغيرة على زاوية الحائط من الأسفل، إنه أثر لريشة رسّام! لم يكن هناك أي أثر مشابه في الغرفة كلها.

اقترب بسّام من الصورة أكثر، كانت بلون أخضر، بحركة لولبية. وضع بسّام اصبعه يتحسس عمر الصبغة، ففتح تحته باب سقط فيه على الفور.

صرخت سميّة تناديه وتحاول اللحاق به، ولكن الفتحة كانت عميقة، ولا تعرف إلى أين تؤدي!

فريد كان يقف مع الأستاذ ضياء يتحدثان، فاقترح ضياء أن المكان قد لا يكون آمنا، وأن عليهما أن يتفقداه جيداً.

بحث فريد عن أي أثر لمخرج ولكن دون جدوى، عندها سمع ضياءً يناديه بقلق شديد: فريد! تعال انظر.

ركض فريد تجاه ضياء، وما إن داست قدمه على عتبة في الغرفة حتى فتح باب أسفل قدميه، سقط عن إثره إلى ممر عميق.

شادي كان يقف أمام تابوت الأستاذ إحسان، لم يستطع النظر

إليه طويلاً، ولكنه لمح بين يديه قيثارة.

مد شادي يده إلى القيثارة، وقبل أن يلمس يد الأستاذ إحسان فتحت بوابة تحت قدميه سقط من إثرها في لولب طويل لا يُعرف نهايته.

اقترب راوي من الطاولة، وحاول أن ينظر إلى من يكتب خلفها، فكان الأستاذ أسد!

انتبه الأستاذ أسد إلى راوي، فتعجب راوي لوجوده هنا كما تعجب أسد لذلك، فسأل كلاهما السؤال ذاته في وقت واحد: ماذا تفعل هنا؟

قال راوي: ماذا تفعل أنت هنا؟

قال أسد: أكتب كما ترى! فماذا تفعل أنت هنا؟

ظل راوي صامتاً، إن أسداً مطمئن هنا! فسأل: ألا يلاحقك أحدهم؟

أجاب أسد: بالطبع لا! أنا أجلس هنا لأن الجامعة هادئة جداً، وأفضل مكان للكتابة، إلى أن ظهرت أنت!

تعجب راوي، فأشار أسد بيده وقال: دعك من هذا! كنت أبحث عن تاريخ معين في ذاك الكتاب، افتح الصفحة الثلاثمئة.

اجاب راوي أستاذه، وفتح الكتاب الذي أشار إليه إلى الصفحة

الثلاثمئة، هناك وجد صفحة فارغة كتب في منتصف الصفحة (احذر قدميك)

نظر راوي إلى قدميه، ففتحت بوابة من أسفله، وسقط في ممر سحيق.

هكذا سقط الأربعة في بوابات سحيقة أدت بهم إلى صالة واحدة، سقطوا من سقفها إلى الأرض بطول خمسة أمتار، وانغرسوا في جبل من الرمال كان يغطي أرض الغرفة.

رفع بسّام رأسه وسعل ليتخلص من التراب في فمه، كما فعل كل من شادي وفريد وراوي.

سمع الأربعة صوت صفقات، فمسح الأربعة التراب عن عيونهم، ووجدوا أنفسهم في صالة واسعة أخرى، تملأ الرمال زاوية فيها، بينما يوجد مجلس جميل في الزاوية الأخرى.

كان هناك كرسي مميز في المنتصف، وإلى جانبه مجموعة جميلة من الستائر والأزهار، ونوافير وقوارير ماء، وكانت تجلس هناك في المنتصف، إنها العرّافة تصفق لهم على وصولهم الأمين.

لم يستطع أحد منهم الحراك، فقد كانوا منهكين ومغمورين في الرمال، ولكنها كانت لحظة حتى دخل إلى جانب العرّافة ستة عرّافات أخريات وقفن إلى جانب العرّافة الأساسية عن اليمين والشمال.

أيقن الأربعة أن هذه هي اللحظة التي يكشف فيها الغطاء عن كل مجهول، وهي اللحظة التي سيعرف فيها مصيرهم.

رفعت العرّافة الواقفة أقصى اليمين قناعها، فكانت الأستاذة ميساء، تنهد بسّام، هي لحظات كانت تستغله فيها.

ثم رفعت العرّافة الواقفة أقصى اليسار عن قناعها، فكان الأستاذ ضياء، ابتسم فريد حيث أنه كان ممثلاً بارعاً.

ثم رفعت العرّافة التالية عن اليمين قناعها، إنه أسد، ثم العرّافة عن الشمال، إنه فريد! نظر الثلاثة إلى فريد المغطى بالتراب، ولكنه بدوره كان مندهشاً يقول: فؤاد! فابتسم فؤاد له.

ثم رفع القناع عن العرّافة على الجهة اليمنى من الكرسي، وسط ذهول الجميع كان الأستاذ إحسان!"

قفزت حفيدتي فرحاً، ولم تعد تتمالك نفسها: "إحسان! إحسان!"

طلب إليها الجميع الهدوء والإنصات للتالي، فتابعت أقول: "نعم، لقد كان بينهم، يقف سليماً معافى.

ورفعت العرّافة على شمال الكرسي قناعها، هنا لم يتمالك شادي نفسه، نهض فوق الرمال يحدق ويقول: قمر!

نعم، لقد كانت قمر بينهم أيضاً، وأخيراً تبقت العرّافة المسؤولة

عن كل ما جرى، العرّافة الأولى، العرّافة التي تنبأت لهم بمصيرهم المشؤوم، العرّافة القائدة.

حدق الأربعة بها، إنها ترفع القناع عن وجهها ببطء، حبست الأنفاس، وحدّقت الأبصار، وتلاشت الأصوات، إنه... وليد، أصغر مدرس في الجامعة.

الولد ذو العشر سنوات فعل كل هذا! هذا لا يصدق! يكادون لا يذكرونه من بين الأساتذة! إنه يقف من على الكرسي تاركاً أقداماً اصطناعية خلفه، وقماشاً طويلاً يزحف من ورائه، ومخدة على مقعده، لقد عاد بطول العشر سنوات.

نطق: أهلاً بكم ثانية أيها الفائزون الأربعة.

كانت الدهشة بادية على وجوههم، فلم يردوا بأي كلام، فقال وليد: نعم، أعلم أنها الدهشة تسيطر عليكم، ولكن اعلموا أن أحداً منا لن يؤذيكم.

أدخلت هذه الكلمات الطمأنينة في قلوب الأربعة رغم أنهم كانوا قد عاينوا الويل في الأيام الماضية.

أشار وليد إلى إحسان الذي قال: آسف لما جرى، ولكنني أظن أنكم سعيدون لرؤيتي على قيد الحياة.

قال شادي: لقد كان تمثيلاً طول الوقت!

أشار إحسان بالإيجاب، فقال فريد: والشرطة، والحبس!

قال إحسان: جميعهم من طاقمنا.

أشار وليد إلى فؤاد، الذي نظر إلى فريد وقال: هل أدهشك هذا؟

فقال فريد: منذ متى كنت تتآمر ضدي؟

ضحك فؤاد، ثم رفع قناعاً عن وجهه لتظهر التجاعيد وآثار الشيخوخة عليه، إنه مجرد تنكر، وها هو ذا جهاد، أكبر الأساتذة، يتلاعب بهم أيضاً.

قال فريد: إذن فؤاد...

قال جهاد: في المنزل، لا يعرف شيئاً.

ثم أشار وليد إلى قمر، فنظرت إلى شادي وقالت: آسفة لكل ما جرى، ولكنني أظن أنك مدين لي باعتذار أيضاً.

قال شادي: لم أكن أتصور أنك تتآمرين ضدي، منذ متى كنت معهم؟

قالت: منذ أن تقابلنا، ومن قبل أن تلتحق بالجامعة.

تنهد شادي، ولكنه صعق عندما أمسكت قمر قناعاً تنزعه من على وجهها، وكانت دلع، من أصغر الأساتذة في الجامعة، ورفعت شعراً مستعاراً ليظهر شعرها الأشقر الجميل، كما أنها نزعت حذاءها ليظهر فرق الطول بين الشخصيتين!

قال شادي: إذن قمر لا تعرف شيئاً.

فقالت دلع: آسفة لأخبرك أن لا وجود لقمر من الأساس.

جفل شادي، فقال جهاد: لقد كنتُ والد قمر أيضاً، كما ترى، التنكر هو اختصاصي.

حدق شادي بدلع وقال: هذا غير صحيح.

طأطأت دلع رأسها، فقال وليد: بالنسبة لك يا شادي فقد كان اختيارك أساسياً منذ زمن، فأنت عازف بارع وطموح، وقد رُسمت الخطة في شأنك مسبقاً، وحتى قبل بناء الجامعة.

ثم التفت وليد إلى الثلاثة الباقين وقال: فريد فرض شخصيته على الجميع، ولفت انتباهنا جميعاً، وقد اختير بالإجماع، راوي اكتشفه أسد، ورشحه بقوة ووافق عليه الجميع.

ثم نظر إلى بسّام بعيون الشك وقال: أما بسّام، فقد اختارتك ميساء، وتأملت فيك خيراً على خلافنا جميعاً، ولكنني لم أكن أعوّل عليك مطلقاً.

فقالت ميساء: ولكنه رسّام ممتاز.

هنا أوضح وليد: نعم، الفن هو أثمن ما نملك، وهدفنا كان أفضل فن، ولكن الأهم من هذا كله كان الفنّان.

تحرك وليد يميناً ويساراً يحدق في الأربعة وقد غطتهم الرمال،

ثم قال: شادي كان أنانياً، مغروراً، شكّاكاً، لا يثق بأحد، وكل ما يريده هو تسلق الجميع للوصول إلى ما يريد.

بسّام كان نهماً شرهاً أكولاً، لا يتوقف عن تناول ما هو دسم ومضر، كان هذا مقرفاً.

فريد مستهتر، يظن أنه يملك الدنيا وما فيها، كان مغرماً بسيارته التي لم تجلب سوى المضرة للناس.

وراوي كان يغرق في المنكر كلما غرق في المسؤولية.

فقال راوي: لن أعود لذلك ثانية!

ابتسم وليد وقال: بالضبط.

ثم استدار وعاد إلى كرسيه، فجلس عليه، وركز رأسه على يده يحدق بهم وهو يقول: لم تكن لتترك بوعد تطلقه اليوم وتكسره غداً. لقد كان هدفنا أن يقلع كل منكم عمّا يفعل الآن وللأبد.

فأوضح إحسان: نريد أن نصنع منكم أعظم الشخصيات.

فابتسم فريد وقال: ولكننا على التراب الآن!

فقال وليد بصرامة: عليكم ألا تنسوا أنكم من التراب وإليه، لسنا نعلّم فيكم الغرور.

فقال شادي: هذا كان هدفكم إذن؟

فقال وليد: نريد من كل واحد منكم أن يكون القدوة لجميع

الناس، نريد من كل واحد منكم أن يكون المثل الأعلى، أن يكون الفيلم المتحرك الذي ينظر إليه الناس بإعجاب.

فقال راوي: إذن ليس هناك جائزة! ليس هناك نقود! كل هذا كان اختباراً!

فقال جهاد: هناك نقود، بل هناك شيك مفتوح، فنحن لا ننقض عهدنا، ولكن لكي تنتجوا ما هو عظيم، عليكم أن تكونوا أهلاً لذلك.

نظر الأربعة إلى بعضهم، ثم نظر فريد إلى وليد وسأل: أنت قائدهم، من تكون؟

عندها وضع الأساتذة أيديهم على صدرهم في حركة واحدة، وقال وليد: أنا أمير هذه البلاد، وحاكمها المستقبلي، الفتى الذي يتجنب الشاشات، ويفضل الانعزال، فن الدمى اختصاصي، وقد قضيت فيه حياتي، أما الفن فهو ما أؤمن به.

عندها قالت دلع: أنا من يصمم له الدمى، كما أصمم للجميع الثياب الخاصة، وطبعاً ثوب العرّافة، فتصميم الثياب هو اختصاصي، وهو فن جميل جداً.

قال بسّام: إذن سائق التكسي، والرجل الذي أصيب بالجلطة، والمتسكع القذر...

قال أسد: طاقمنا.

قال راوي: وصاحب المطعم الخائف، والجرذان...

قال ضياء: طاقمنا.

قال فريد: والفتاة الميتة في صندوق السيارة...

قالت سمية: طاقمنا أيضاً.

عندها قال بسّام: وما المطلوب منا الآن يا سيدي؟

أجاب وليد: لن أطلب منكم شيئاً، بل سأسحب العرّافة من حياتكم، تلك العرّافة التي ظننتم أنكم لاهون في أمرها، ألا تذكرون قول الله تعالى: (قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾) سورة النمل

قال راوي بسرعة: لن نسأل عرّافاً طول العمر!

ابتسم وليد وقال: هذه أساسيات كان يتوجب عليكم أن تعرفوها مسبقاً. على أية حال ستعود المياه إلى مجاريها، وستعودون إلى حياتكم بتغيرات بنّاءة، كما سيحصل كل منكم على حلقة يطوق بها يده، ليتذكر هذه الأيام.

أخرجت دلع صندوقاً فتحته ليشاهد الأربعة الحلقات، إنها أساور كتب على كل منها (أتعهد بأن أكون المثل الأعلى) فقالت دلع: لن تجدوا شبيهاً لها في الدنيا، إنها من تصميمي الخاص.

فتابع وليد: الآن تستطيعون تصميم الفيلم الذي لا مثيل له."

الفصل السابع والأربعون

الفيلم

سأل أحفادي: "وهل تم لهم الفيلم؟"

أجبتُ: "نعم، تم بنجاح، ولاقى إقبالاً واسعاً، فضلاً عن الفائدة الجمّة التي نشرها في المجتمع"

"وهل كانت حكاية الشيك المفتوح حقيقية؟"

"ألا تذكر أن وليداً كان أمير البلاد، لقد صرف على كل مسمار شارك في الفيلم، أما الأرباح الهائلة فكانت نصيب الأربعة"

"ماذا عن الأساتذة؟"

"كل منهم عاد إلى عمله، وظل الفن محور حياتهم، كما كانوا فخورين جداً بالفيلم الناجح الذي صدر عن تلاميذهم، فلا تنسوا أن نجاح الطالب من نجاح الأستاذ"

سأل أحد أحفادي: "ولكنك يا جدي لم تخبرنا كيف مات كل منهم"

ابتسمت وقلت: "لم يمت أحد منهم كما تنبأت العرّافة، فريد مات في عمر الخمسين، عندما تعثر عن السلالم، وشادي توفي على عمر السبعين، نائماً على فراشه، وراوي توفي على عمر الخمسين في

المستشفى، إثر التهابات حادة، أمّا بسّام فلم يعرف أحدهم كيف مات"

تعجب أحفادي، لماذا لا يعرف أحدهم كيف مات بسّام؟ فسال أحدهم: "وهل عاد فريد لقيادة السيارات؟"

"نعم، ولكن قيادته باتت آمنة"

"ماذا عن شادي، هل تزوج؟"

"تزوج شادي، وطبعاً مر العرس بسلام، كما انقطع راوي عن الشرب نهائياً، ونظّم بسّام غذاءه"

ارتضى أحفادي النهاية، فابتسمتُ وقلت لهم: "هكذا انتهت روايتنا، هل استمتعتم بها؟"

أجمعوا: "بكل تأكيد!"

"هل تعلمتم منها دروساً لحياتكم؟"

"بكل تأكيد!"

"هيا إلى النوم إذن"

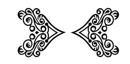
سألت أصغر حفيداتي: "ومتى نبدأ حكايتنا التالية؟"

أدخل سؤالها البهجة إلى قلبي، وشعرت برضى لا يوصف، أجبتها: "سأفكر لكم برواية جميلة في الغد"

سعد الجميع ونهضوا إلى فراشهم، بينما بقيت جالساً أمام النافذة أحمد الله على أفضاله، على كل زهرة، على كل قطرة، على كل

نسمة، على منزلي، على أولادي، على أحفادي، علـى جِلـستي هـذه، على روايتي.

أحمـده علـى الأيـام الجميلـة الـتي قـضيتها منـذ الـصغر، وفي الشباب، وحتى الشيخوخه، أحمده أنه رزقني وأعطاني عطاء كريمـاً، وأرشدني إرشاداً حكيماً، وأنظـر إلى الـسوار في يـدي حيـث نقـش فيـه التعهد بأن أكون المثل الأعلى.



ـ تم بحمد الله ـ